

A.U.B. LIBRARY

892.709:M94A:v.2:c.1

مبارك، زكي

النشر الفني في القرن الرابع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032354

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



AUB. LIBRARY

النثر الفصحى

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدًا]

الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع مجد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

48207

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبع :

- ١ - سرائر الروح الحزين .
- ٢ - أكواب الشهد والعلقم .
- ٣ - أسمار وأحاديث .

دار النشر

٢٥٥٨٤

[دار النشر]

دار النشر

٢٥٦١ ٩ = ٢٦٨١ ٩

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد
٢٠٢	نثر ابن العميد
٢١١	أبو حفص بن برد
٢١٨	أبو المغيرة بن حزم
٢٢٦	أبو الفرج البیغا
٢٣٣	نثر أبي الفرج البیغا
٢٤٣	الصاحب بن عباد
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي
٢٧٧	قابوس بن وشمكير
٢٩٠	أبو إسحاق الصباني
٢٩٦	رسائل الصباني
٣٠٢	أبو عامر بن شهيد
٣١٠	نثر ابن شهيد
٣١٩	أبو الفضل الميكالي
٣٢٥	بديع الزمان
٣٥١	نثر بديع الزمان
٣٥٧	عبد العزيز بن يوسف
٣٦٣	الفهرس المفصل
٣٧٣	فهرس الأعلام
٣٩١	المراجع

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني
١٧	نقد كتاب الوساطة
٢٧	ابن فارس
٣٧	نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبي عند ابن شهيد
٥٩	أبو بكر الباقلاني ونقد آرائه في إعجاز القرآن
٨٢	أبو القاسم الأمدی
٨٩	بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتری
٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	أبو هلال العسكري
١٠٣	نقد كتاب الصناعتين
١١١	أبو علي الحاتمي
١٢٠	أبو عبد الله المرزباني

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٣	أبو حيان التوحيدى
١٤٥	أبو علي بن مسكويه
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٩	ابن نباتة الخطيب
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه في الحب
١٧٩	أبو منصور الثعالبي

الباب الرابع

كتاب السبق قبل الأدب

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل، حى الإحساس، حر الوجدان يلقى إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أصمّ هذا القاضي مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاء بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانى النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدن له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بقية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرارير ، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمير ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأقيشر اليربوعي — تردد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينغر بها ساعةٍ قدرُ
ولم يشهد القس المهيم نارها	طروقا ولم يحضر على طبخها خبر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جَنَحَ النسر
فقلت أصطبجها أو لغيرى فأسقها	فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً ^(١) العمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرَّ أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة^(٢) .

ونرى أن لوفرة ما كان يجرجان من الفواكه ولشهرتها بالخمير تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المقتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدمه من الكاتين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفنيته يوماً من فرط تحفيي بي وتواضعه لي فأئشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فعلك الحسن

(١) كلاً العمر : انتهى الى آخره وأقصاه . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالى .

فالعز مطلوب ومتمسك وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينة . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلنى من المكرمين ﴾^(١) . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء في مختلف الاجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً ، وفي الكمال عالماً . ثم عرج على حضرة صاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفعته ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال في حياة صاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ - وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ - ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضي الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه الا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما متجى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

✓ فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولأين ، وفي أى وقت جاهر وكاشف - ويبين في الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الإسلامية . واستخدام التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثالا ميل خاص الى بعض الأحزاب الإسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترى اليه : فطالما أعتزت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقي لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه" وسنعود اليه .
 وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عدتنا في تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

ه - كانت نفس القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني نفسا غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التى حرمت عليه طبيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للرؤءة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين نقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاء له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية فى سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضى القضاة وأسرفت فى التصون ، إن كان فى التصون إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة والانفراد . وشعره فى هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يعترجها كاتبها بكار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

✱ يقولون لي فيك انقباض وانما
أرى الناس من دانا همو هان عندهم
وما زلت منحاذا بعرضي جانباً
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولم أقض حق العلم ان كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :
على مهجتي تجني الحوادث والدهر
كأنى ألاق كل يوم ينوبني
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وبيني وبين المال بابان حرماً
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم

وأما أصطباري فهو ممتنع وعمر
بذنب وما ذنبى سوى أنى حر
أضيق به ذرعاً فعندى له الصبر
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغنى : نفسى الأبيسة والدهر
مواقف خير من وقوفى بها العسر
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان .
وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرض عليه عرضاً
فيأبأها إيثاره للصبون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحرّ تحتل الظما
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خير من وقوفي بها العسر
وقوله :

وبيني وبين المال بابان حرماً على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ -- وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطاً على ما يصحبها من مواقف الهوان . فليحظر كيف يعتذر من أنقباضه عن أخويه ، وكيف يلجح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هرباً من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سبباً فطر عليها منذ قضى الله أن يليق به فى ظلمات هذا الوجود، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدى	وَدُم لى وإن دام البعاد على الودّ
ولى خالق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبه	يعتد جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلاً فان رمت هجره	تأبى وأغرتنى به ألفة المهد
كما ألفت كفا كما البذل والندى	فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدى
على أننى أقضى الحقوق بنيتى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
فإن أنتم لم تقبلوا لى عذرة	والزمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبعى أن يزول فانه	يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغربين بالتغريد على أفنان الجمال .

وشعره في وصف الملاحه ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما

فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخدّ المورّد والطرف الكحيل - :

أثر على خدّي من وردك أودع في يقطفه من خدّك

ارحم قضيب البان وأرقق به قد خفت أن ينقّد من قدك

وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك

وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفي كفه مثل الذى أشرب من فيه

الورد قد أينع في وجنتي قلت في بالثم ينجيه

وقوله - في فتنة الألاحظ - :

من ذا الغزال الفاتن الطرف الكامل البهجة والظرف

ما بال عينيه وألحظه دأبّة تعمل في حتفي

واهاً لذاك الورد في خدّه لو لم يكن ممتنع القطف

أشكو الى قلبك يا سيدي ما يشتكى قلبي من طرفي

وقوله - في اختلاس التقييل - :

وغنج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شيج وامق

ما خلق الرحمن تفاحق خديك إلا لفم العاشق

لكنني أمتنع منها فما حظي إلا خلسة السارق

وقوله - في القسم بجنود الجمال - :

لا وجفون يغضها العذل عن وجنات تذيبها القبل

ومهجة للهوى معرضة تعبت فيها القادود والمقل

ما غاب من غاب عن ذراك وان أخرميقات يومه الأجل

وهذه القطع التي آخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الخواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضي العُرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

من عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحي ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالذنف الهائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفي تصيد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول في تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سقمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرى دمك
أعمرته صبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حد مبضعه فألحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ - وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الخواس ، ويعود الى بكاء

ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى

الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلغ ما يقول المتيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسيلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

في ليالٍ كأنهنَّ أمانٍ من زمان كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقاءكمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس
يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليالٍ كأنهنَّ أمانٍ من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال ؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعةً تلك الليالى كعهدا الى الوصل أم لا يرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وآستطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعودها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبى بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُدأوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويغتدى بأنس من قلب المقيم نزيعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظمأ الى معاهد

تلك الظباء التي تخالفت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلالها
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد
تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويعتدى بأنس من قلب المقسم نزعها

يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها^(١)

والعجيب في هذا الشعر أن تُصوّر نفس الحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الضاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الأصطباح
بوجوه الملاح ؟ ومن يدري لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان
العهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا

أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هيا

فواأسفى حتام أرعى مضيعا وآمن خوآنا وأذكر ناسيا

وما زال أحباني يسيئون عشرتي ويحفوننى حتى عذرت الأعدايا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني يحده القارئ في أخباره باليتيمة — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتنبى وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبى وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوى المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه .^(١)

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبى فئتين : فئة تطنب في تقريله وتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهى أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبى وخصومه المسرفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البرّ ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح سمّا من عقوق من ناسبك الى أكرم آبائك ، وشاركك فى أخفى أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومثّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك الى الفخر » .^(٢)

وهذا الحرص على بقوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضي الجرجاني على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل في نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابه إلى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك ، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعتذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك إذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة إذا قامت محتجا عنك إذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمئة ، من توقفك عند الشبهة إذا عرضت ، واسترسالك للحجة إذا قهرت“^(١) .

وأخوة الأدب هذه عرفت قبل هذا القاضي الأديب في شعر أبي تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفي . وللقارئ أن يرجع إلى ما قيل فيها من جيد الشعر في الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضي الجرجاني لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء في الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة في رقة الشعر وجفافه . وانتقل إلى الكلام عن أبي تمام والبحترى وجرير وأبي نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا إلى بحث الاستعارة والجناس والتصحييف والتقسيم . ثم أخذ في الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تلخيصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل في الاعتذار عنه . وقد جرت هذه الأبحاث إلى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس في التشبيهات ، وتفاوت الشعراء في صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم في أخذ الألفاظ والمعاني إلى غير ذلك مما كان يوجب الأئس بالاستطراد عند المتقدمين .

ونريد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلبسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني، أو كاد، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والخن .

فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطه . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحب (٢) إثمًا من الله ولا واغل (٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متنتان خطأتا (٤) كما أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم إذا اكتسبه كأنه شيء محسوس حله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخطأ : المكتنزة من كل شيء .

وقول الأسدي :

نما نزعها وقد مزقت واتسع الحرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسبا وابننا نزار فأنتم بيضة البلاء
وحذف النون في قول طرفة :

ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كان نبيرا من عرّانين^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطل الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالي الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التي يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفي بما أشار اليه الجرجاني من تعسف المناخين عن شعراء الجاهلية ومن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغني هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلي — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرين وهو الأنثى . وعرانين الويل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملتبس في ثوبه . وكان يحب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصي^(١)
 نصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى . وكذلك قول الآخر :
 غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والجر
 رفع الجر على توهم رفع العبيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي ، الى آخر ما يتأول
 النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا
 الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى ؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب
 النحاة في مثل ذلك التأويل ؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ماسبق
 إليه الاعتقاد وألفته النفس ، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح : فاننا نرتاب
 في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولّدون وأن من الخطأ
 إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء
 خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب
 من يقول في " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق الى جيراننا صور
 وأننى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتمحل له الصواب . فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله
 من قبيلة مهجورة تسبغ هذا التعبير .

وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن
 للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسرهِ وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري على قواعد من
 النحو لم تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب ، كما اتفق ذلك في العصر العباسي ، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست
 أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم ، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى اللغة التي حدّد قواعدها النحويون .

(٣) أنظر الصاحي ص ١٢

وعذوبته وسلامته من العورة والجفاء! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : ملازمة عدى الحاضرة وبعده عن جلافة البدو وخشونة الأعراب^(١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل اليشكري وهو جاهلي صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختمها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة الى الغدير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي الغرير
فدنت وقالت مامد يخيل ما يجسمك من حرور
ما شف جسمي غير حب لك فاهدئي عنى وسيرى
وأحبها وتجنبنى ويحب ناقتها بعيرى

٧ - وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثرا في رقة الشعر

فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودمائة الكلام بقدر دماثة الحلقة . ويقول :

”وأنت تجد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك“^(٢).

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعاً الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتي الشاعر وهو قتي بما لم يستطعه وهو كهل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح في حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدائرة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيحه الحب ويأسره العشق . ولم يذكّر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

❧ وفي الحيرة الغادين من بطن وجرّة غزال كحيل المقلتين ريب

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تتأين عنه غريب

وقول الآخر :

❧ فيارب إن أهلك ولم تروها متى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

وإن أك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر

وان يك عن ليلى غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيح المؤنث

وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشايقه ، وإنما يريد النمط الأوسط الذي ارتفع عن الساقط السوق

وانحط عن البدوي الوحشي . وهو لا يوصى بأجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم

الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون الغزل كالفتخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،

ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالتهريض . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح

باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من

الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك

في هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون

كتابك في الفتح والوعيد خلاف كتابك في التشويق والتهنئة واقتضاء المواصلات ، وخطابك إذا

حذرت وزجرت أنخم منه إذا وعدت ومنيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل

والتهافت ، وما أعترض به التهريض والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع

علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس^(١) .

فأما القذف والإفخاش فهو سبب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وإملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعني بهذا كل طبع . بل المذهب الذي قد صقله الأدب ، وشخصته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقيح » .^(١)

٩ — والذي يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبقاً في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الأفكار تصرف المالكيين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمده به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع إلى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام للبحرئى فسيرى عناصر هذه النظريات التي يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان .^(٢) ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك رأيه ، وأقرب إلى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء . وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فم رشقات
هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأبهر آيات التهامي أنه
أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب
الآخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إشار اللذازة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر أجل ظنى به رجم من الأخبار
إني بعاجل ماترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يعى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى واضراهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر" (١) .
ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى رأى "وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت النزعة الفنية سيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا رأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتجرد به الشاعر فيهن نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبغى أو تقبيح الغى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ذيك الجح :

لما نظرت إلى عن حدق المها وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

(١) لعمرك ما أهويت كفى لريبة (١) ولا حملتنى نحو فاحشة رجل
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا داني رأيت عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بمأش ما حبيت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، ويروك شكّه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدّث صادقاً عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آرائه باختلاف ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتفتن يده الصّناع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّره به محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وأنجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبنّاها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالبا للزيد .
فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابنه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسبته ابن الأنباري الى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى ^(١) . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء ^(٢) : « واختلفوا فى وطنه ف قيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثنى والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضرى مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلاد بها شُدَّت على تمائى وأول أرض مس جلدى ترابها »
أما وفاته رحمه الله فكانت بالرى فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ - ذكر السيوطى فى بغية الوعاة أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه " ^(٤) وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالإشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بخاريهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث العملات على وجاها ^(٥)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) العملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما
وفانك واجد أرضا بأرض
وخل الدار تحزن من بكائها
ولست بواجد نفسا سواها

٣ - كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق ، وانتهت بشقاق - نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد ! - تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة الى الصاحب . وحتى مدح الصاحب بن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف » ^(١) ثم انخرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ اليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة ^(٢) . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء ^(٣) يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بديع الزمان الهمداني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد اليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التي تجبل غدرها في قصائد الشعراء ، و صحائف الأنبياء . ولننظر كيف يقول « نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون » ^(٤) وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها ؟ أم السنين الحربية ^(٥) .

سنة الهجري
الذي فيه فارق

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غير وهو بقية

اللين . والكسع هو ترك بقية من اللين في أخلاف الناقة . المعنى : لا تغز لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدري من النتائج) كما في بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١) والرمح يركز في الكلى
(٢) والسيف يغمد في الطلى
ومبيت حجر في الفلا والحارثان وكر بلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد النزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيممية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأاة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم في الجاهلية وليد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم وبقيت في خلف بخلد الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نجها إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس ، وإنما اطرده القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال :

«ولعمري لئن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المنال ، وإني على توبيخه لى لفقير إلى لقائه ، شفيق على بقاءه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكتابي موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته به ولرددت إليه سُور كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكنني خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

الينا) وله أيده الله العتي ، والمودة في القربي ، والمربع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ،
وضمته المشط . وليست رضاي ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال :^(١)

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئاً من صور نفسه ، وألوان قلبه :
فان لأزمات القلب ، وبجعات النفس ، دلالة كبيرة على المناحي التي يمنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون^(٢) .

٥ - كان ابن فارس وسطاً في شعره ونثره : فلم يكن يُسَفّ حتى يصل الى وصمة
الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره في جملة بين واضح مقبول . يعجبني
منه قوله - في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب - : « وقد كان الناس
قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا
حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نها قالا (ما ندرى ما الاعراب
وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب
بنفسه ويراه من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟
من أي شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدرى ما هو
ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيرها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل
الكاتب الى ما يرمى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ - من رسائل البديع . (٢) الذي في رسائل بديع الزمان أن هذه
الرسالة جملت جواباً عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع
الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على
فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجملته الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفي الداء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم^(١)

وقوله في كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمى هرتى وأنيس نفسى دفاتر لي ومعشوقى السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضمون به يستخر الحق

لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخدمني لها ومن أجلها الحق من الناس

وقد يستجاد قوله في التغاضي عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النحاة قوله في فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تنمى لتركى^(٥)
ترنو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من البيضة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعيننا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطي ” وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد“ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو في ”الصاحبي“ رجل حذرٌ هيب يحسب مسيرة العقل جريمة ، ويعتد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ”الصاحبي“ كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحح أحياناً فيرمي بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ”علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة“ .^(٢)

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بنخيت فيما نظن قوله في رينان ”ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف“ .

وحقا إن الفلسفة لا تريد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه " الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف " وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك " وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو "، ثم يقول " وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بترجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وآدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن " ثم يقول في وصف العروض " ومن عرف دقائقه وأسراره وخفياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه " .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ - تترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فتراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتتلان . تدعو إحدهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والحديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ”ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك واعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورخيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال ”ما ترك الأول للآخر شيئا“ وتدع قول الآخر ”كم ترك الأول للآخر“ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجوز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حييب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجوز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدري قدره !!

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام
ثاقبة، وليكأت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة
ولجت الأسماع كل مرّدد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسام
(لو كنت من مازن لم تستبح إيلي) والى متى "صفحنّا عن بنى ذهل" — الى أن قال "وهلا
حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما تجتته خواطر هذا
الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن
درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" .

١ . — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف
عن سابقتها أشد الاختلاف . وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءاً كبيراً من هذه الرسالة فليرجع إليها من
يطلب المزيد . ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس
وكانت تضيق به نفوس الرجعيين إذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف
بالمنادى وكان من أهل قروين :

حجّ مثلى زيارة الخمار	واقتنائى العقار شرب العقار
ووقارى اذا توقّر ذو الشيد	سبة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فاتن سحار ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل ، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبي نواس
لاتصالها بفنّه المعروف فى الغزل والشراب ، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتاً آخرها هذا البيت
الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را ح بسكر وان غدا فى نمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فتم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ما شبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فحل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشئ والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه في الدين) وفقحت فلانا كذا وأفقحته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر بن الخطاب بن عبد الله كنت سيدا في الجاهلية وفقهيا في الاسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراهة : في أبواب الفقه . وفحل فقيه عالم بذوات الضيع وذوات الحمل^(١) .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة "فقه اللغة" لم يكده يتفق القدماء على أفرادها بمدلول خاص . وإنما نجدتها في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والثعالبي يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمي بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذي أهده اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه في تأليفه لم يكن جريا على خطة اتفق عليها الباحثون في ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) في العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة "الفيلولوجى" علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضيع — بفتحين — شهوة الناقة الى الفعل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه فى المجموع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية ” .

ويترب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدي أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الايرانية بل عليه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدي الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذلك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة ” فقه اللغة ” التى اختيرت لترجمة كتاب الثعالبي لم يرم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال ” هذا الكتاب الصحابي فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها ” وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين في فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء في الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلبل" حركة الشيء المتدلى - و"الترجرج": حركة الكفل السمين والفالودج الرقيق . و"النسيم": حركة الريح في لين وضعف . و"الذماء": حركة القليل . و"النودان" حركة اليهود في مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنوع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذي استعملت فيه كلمة "النودان" مثلاً وأن يبين أعربية هي أم عبرية .

وجاء في الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذي يوجب الحد فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فإذا كان لا يمتاسك ولا يمتالك فهو ملتخ . فإذا كان لا يعقل شيئاً من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران بات وسكران دايت . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئاً عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : في شعر أو في نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلاً في صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعي وأن (سكران بات وسكران دايت) كلاهما عن الكسائي ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التي روعى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبي في "فقه اللغة" وآبن سيدة في "المخصص" وآبن الأجدابي في "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر في الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أنقلبت فيه الألف عن الياء مما أنقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدون الموضع الذي انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك كجذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه ^(٢) . وهذا وذلك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سداجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتاباً فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشئ لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح ^(١) » .

ويبالغ في إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى في زعمه ابن عباس أن الأسماء التي علمها الله آدم " هي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحرار وأشباه ذلك " ويقول في سذاجة " ولعل طائفاً يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قرأ الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمّل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده " وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئاً من الاختيار في كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهي الأمر إلى الموقف الأقول " ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ في تأييد هذا الرأي إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصطقاع والأقاليم تأثيراً في تكوين اللغة وإن لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و "لا تبديل للخلق" فدعا بالدواة فحدا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" وحدا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجهها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران» ولست أجتري على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .
وكان علي ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أي حد يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(٢) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا في الاسلام : فالنحو من وضع أبي الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما يهجمس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شاقةك أظعان ليلي دون ناظرة بواكر

ف نجد قوافيها كلها عند التزم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبهه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون^(٣) .

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلي والأُموي ، ولغات العالم كله تعرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا في ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" في عبارة ابن فارس تحتاج إلى تحديد .

٧ - ولابن فارس رأى في التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأرب علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب في الاغراء (كذبك كذا) وما جاء في الحديث من قوله (كذب عليكم الجح) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عِدوني وعللوا بي الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شنّ بارد ان كنت سائلتى غبوقا فاذهي

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك في الأرض "عنك شيئا" وقول الأفوه :

عنكمو في الأرض إنا مذحج ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد؟" .

وقال ابن ميادة :

وأحمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفيينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسر بعد . وقول أبى ذؤيب :

ضخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبى ربيعة مسبع

قال ابن فارس : فقلوه "مسبع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياهى مالك" و"ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و"ويهك" و"إنيه" ولا قول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضعه فكثير كقولهم "حى" و"حى هلا" و"وبعين ما أرينك" فى موضع اعجل . و(هج) و(هجا) و"دع" و"دعا" و"لعا" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تسمى مل عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعل . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع" قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما كرهما النبى . وكقولهم فى الزجر "أخر" و"أخرى" و"دها" و(هلا) و(هاب) و"ارجى" و"عد" و"عاج" و"يعاط" و"يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئ ولا الهى امتداحيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حدج" .

(١)
قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متصلة في لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف في عصر ثم جهل وما استعمل ثم تجاوز الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاض . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الخالف « والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرًا » الى أى حد يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » . مشتبّه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم واللئيم اذا قال « هذا لأغنياء أهلى » أو « فقراءهم » أو « أشرفهم » أو « كرامهم » أو « لئامهم » وكذلك إن قال « امنعوه سفهاء قومي » لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقليل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرأ على القاضي قوله جل ثناؤه « وما علمتم من الجوارح مكبلين تعلمون بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم » . فأمسك القاضي عن الحجر على الكهل .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه « وإنه لتنزّل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلمها فضلا عن أن يسمى بيتا أو بليغا .

”وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١)

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جازله أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان ! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح ؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، ولحمة مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره ان سأل الرشيد الأعمى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أعمى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما“ وكان من آثاره أيضا أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثرا من عبث الرواة ولع بهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرمى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة ولحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا في أنفسكم كل من أفلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون اننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قریش التي نزل بها القرآن؟ أفستطيعون أن تثبتوا أن قریشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المحم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسبقوها لأنها وقعت على غير ما يألفون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاححة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقربات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعان — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل في مقدور كل بلّغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سيادة نفسية من المتكلم للخطاب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع"^(١) الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب ، فلندكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص ، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصبغ أحكامه بصبغة التعميم ، ويعيد عن أذهاننا ما يريده من التخصيص ، ولكنه غلب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضغن والحقده وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية ، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها ، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع في باب « الأخبار والأفاصيص » من الجزء الأول .

٢ — يتحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يخبثون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، إلى فطن حثة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني من الرقص على الايقاع والزمير على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالخمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغته واستدارة حافره، وأنه لو جاز لخمار أن يغني :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضأت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضرب على الأوتار، ويرنخ الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيبيلل بنشيدته، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ — وفي موطن آخر نراه يندد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصابة إذا محتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحق، فاذا جمعنا المحافل، وضمننا المجالس، تراهم إلينا مبصبصين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، إذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ“^(٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول

الجاحظ :

”إنا إذا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر، ولو أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه ”عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته ، وضمن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمرة الفهم " لأنه عرف « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ - ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما نتمثله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ - وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فإن البلاغة في الواقع تبني على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقسيدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوقة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مליح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خُفّاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفّاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسجت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : « وكان ذلك اليهودي ساكتا يعي ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال

في أبيات تشبهه وجاء اليهودي فأنشدني :

أيهم ركبناهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

وأستمر إلى آخر القصيدة فأني بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورآني أستعمل وحشي الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فأستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تبخل على به ! وعرضه على ابن الإفلح فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك ^(١) .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوى المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » ^(٢) .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن بصالح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أضخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين لبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك : « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخطب العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة فنشاركه ونعذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصايين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوى المتنبي .

(٣) الخطب : السؤال ، من خطب الشجرة شدها ثم نقض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالودجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن يكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طلب منه كشف السر الذي حرك العامة فجاءت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وابن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لدى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود، وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميؤسا من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الحق جو بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مرّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل الظاهرة إلى مشا كل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريقة لتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقنون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففي كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشد خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيلاً على المعاندين من يخاطبهم أو يرسلهم أو يحاورهم في جد أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصب ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدو أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسنى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظاً يتلظى حين نهجم

ونفتك ، ونسيما يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس
لأنفس المخاطبين فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإفحام الذي تهيب عواقبه الشعراء .
ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفقه أن يقرر أن سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع
الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت
تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

”فن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطلع صور الكلام والمعاني
في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان
ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الروق .

”فن كانت نفسه هي المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ
القلوب وتنعش النفوس ، فإذا فشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ،
وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق
بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى
ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما
أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو
الروح . والجانب الثاني عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبَوس لا قِوام
له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصي الناقد بأن ”يفتش عن شرف المعاني ، وينظر مواقع البيان ،
ويحترس من حلاوة خدع اللفظ“^(٢) .

ويقتر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعتمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يتمطى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"^(١).

وكل هذا جذير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وحى مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك نفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب. وهذا هو سر ذيوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطباع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقربة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب وزيادة غلط أعصاب الدماغ وتقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة^(٢)، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعبد بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أجبادنا"^(٣). وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحدوة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ - وابن شهيد وفي لمبدئه في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الأفليسي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينيه قعد به : لأنه لا بد للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تدم أنفاسه عند مقاربتة له . ولذلك استحسنوا من الكتاب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأنف ، وضرب الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة فقل : وأي أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ، وجدليا غير حصيف ، وفقهيا غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من ينسبه إلى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له إطفاء جمره فتنة ، ناهضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكتاب فرقا“^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر ابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفليسي لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذا ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيسست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الاسلامية . وإنه يمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبينهم برهانا ، ولمعجزته ثبوتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد التفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشميم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآثر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ وكان من كبار أهل السنة . ورواه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشي الرجال به وأنظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وأنظر الى صارم الاسلام مقتدا وأنظر الى درة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة الى الباقل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسأله أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التي يجدها المطالع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ - ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقرر - في صراحة - أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهمننا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلاني في نظرننا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمننا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثرها وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فإن ذلك في جملة ما يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ - من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) - ففي

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيدها أنها وقعت في القرن الرابع . ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي ، ولكن ما صنعه الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها فتفاوتا بينا في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسمل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهي على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة . ويتلون تلوّن الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه "قول يجري في سبيله على نظام ، وفي وصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورونقة على طريق مختلفة مؤلفة ، ومؤلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن" .

٤ - ونتيجة هذا - من وجهة تاريخية - أن الباقلاني ومعاصريه رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وإن لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يعدّ من المحاولات الباهرة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالفضل . والباقلاني كان يعتمد الى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك ياسعاد بحسن فيما أتاه ولا الجمال بجمال وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :
بجاية حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجملي

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب .

هـ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبجح لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما همّوا به قديماً من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ - وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالطورا والإنجيل والصحف الربانية .

ويجب الباقلاى بأنه لا شىء من ذلك بمعجزى فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فىما يتضمن من الأخبار بالغبوب . وىضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن ^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلاى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله الطورا والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلاى أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها الطورا والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان ^(١) .

فان سأل القارئ : أكان الباقلاى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة ؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب ^(١) .

٧ - وهنا يتطوع الباقلاى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

تصوره
«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

« انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب^(٢) » . والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجري الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن الميسو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بخاء أخيرا وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « ما ئعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣) .

والميسو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للأسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وانما هي كلمات « تصيدها » الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبي ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحمل من جانب البلاغاني ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وان كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وان كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما نشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإننا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يتحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان ^(١) .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

(١)

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يغيض .

ووقف المجتهدون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمنتبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة بيرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام

العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل إلى الرسول طمعاً في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة (حم . السجدة) من أولها حتى انتهى إلى قوله : (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني ” فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون ” لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه “ .

ذلك ما قرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

” قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي))، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحدّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما أتت صفحة فللباقلا في عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك .
نخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن
خشع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا
في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم ، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين
لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب : فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقى نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيّات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفي أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشرفى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وربانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى في العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدا

هذا البيت يمكن رجعه طرافته الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قومي وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شئ وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وان كانوا ذوى عدد" وقوله — "وان هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم في قوله :
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أزلى الدهر على حكمه	من شامخ عال الى خفيض
وغالى الدهر بوفر الغنى	فليس لى مال سوى عرضى
أبكاني الدهر وياربما	أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا تمتعت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئاً من أسرار الإعجاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأتباع والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأتباع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون بفاء القرآن بجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه
بخاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك
فنرى أن مجدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامي لم يكن
جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل
والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولورجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر
إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعترض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب .
فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراده
بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به
بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو
ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر
شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر
نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح إذا شَبَّ . وذلك أخل إذا تمحس .
ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى
الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلاً بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعاً حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ - وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جاویش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدًا بين الحديدي والقديم كان نزاعا حول فكرة . وما نحسب أحدا من هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادّعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معاني وديعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدesh ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ - وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فان قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الردى من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الافهام وان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستحسن المفوظ^(١) .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يحدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن العبث أن نزن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولا ويحيى الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبينا ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح.

فإن أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية. ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون. قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾.

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات الى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن؟ أترون ألفاظها متخيرة متقاة؟ هو ذلك. ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعانى والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد. يقول الله عز شأنه: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾.

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصيح النبيل. فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشيء عن غيره من التراكيب.

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن. وقد راجعت صديقا ادبيا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى أقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

((ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى)) .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ثقل في قوتها عن كلمة ((ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا)) فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكرر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل ثناؤه ((ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين)) . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يحدها من يريد في أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

الحسن لا يتصور
للفظ وإنما في
اللفظ
السبب
شعرت

٢٠ — نترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة "لله في يدي" لتروا انها من نواذر الكلام الجيد البليغ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”ذابي هذا كتاب معنى“ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام “ .

أفترون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو تنظرون . وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتياله عدوك عليك “ .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونيه في شيء غير المعنى ؟ وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري :

”عذ مرضى المسلمين ، وأشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

وهي نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله ” فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ انظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتك فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادي لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون أن لفظة ” شهوات “ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد لبني كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرؤوم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي يميني ولو عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها وقلت لها بعد اليمين سليمان
سليني مالي يا بئين فأنما بين عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أني أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد من الناس عدل أنهم ظلموني
لما الله من لا ينفع الود عنده ومن حبله ان مد غير متين
ومن هو ذولونين ليس بدائم على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمرة لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هي صفات للمعاني تتمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يحى حديثها بخير وقد أعيأ كليباً قديمها
أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يحى صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة، وتنبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : "نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة"^(١).

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف^{صحيح} الناس بقدر الألفاظ والأساليب فليست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل: فالمصيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخيول هي الخيل، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا إذا اعتلى صهوة فارس مغوار، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالجمار "تحت الفلاح العبيط"، والمرأة هي المرأة، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً: فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان، وهم في أيام أخر يُسَفّون ويتهافون . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثيراً بليغاً . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغاً في جميع أحواله، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائعة للكاتب في كل لحظة، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب؟ أيفهمون الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سر إعجازه راجع إلى روحه ومعانيه؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلائي قوله بنفي السجع من القرآن، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب، منهم من سبقه ومنهم من عاصره، وحجة مخالفه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"^(١) .

”والذى يقدرُونَ أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بالفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“ ^(١) .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن اذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود“ ^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في التريين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين تفاه على الإطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذي بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقهه ما يقول ، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرفع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ^(١) 》 .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ^(٢) 》 .

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيرت ، وإذا العِشارُ عَطَّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ^(٣) 》 .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المسكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نفى السجع من القرآن لنقدر وزنه للحجج والبيانات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات ، وليس كذلك الشعر ^(٤) ” .

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف أتفق للباقلاني وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفني يابجا اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الإعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلاني ، ولكني أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويتم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطال في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلاني وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلاني لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

٧ - أبو القاسم الأمدى

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الأمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فتلق النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ .^(١)

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قُصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى . وكتاب في أن الشاعرين لا تنفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر أمري القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شيء كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتنفق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصاً على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل إليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الرواء . من ذلك قوله :

يا واحداً بان فى الزمان	ممن يحاريه أويـداني
دعنى من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحاً	ولا أخاً طامعاً ترانى
وهب اذا كنت لى وهوباً	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تتمام :

لا تنظرن الى ثمتعه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظرالى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفـس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القصائد :

رأيت قلنسوة تستغيث	ث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميـد	ل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فوق القفا	وطورا تراها فوق الحيين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أن لست فى قالى	وأخشى من الناس أن يصرونى

وأن يعبثوا بمزاح معي وإن فعلوا ذلك بي قطعوني
 فقلت لها مرّ من تعرفين من المنكرين لهذى الشؤون
 ومن كان يشفق إما رآك ويخرج من جوفه كالرنين
 ومن كان يصفع في الله لا يمل ويشتد في غير لين
 ويسلح ملاك كيل التمام إما على صحة أوجنون
 وفارقها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها في السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الأمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه في الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه في ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشدّ العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرّر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه في المعرفة بالشعر تهمته إياها في المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحه سببيه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبرأته من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور في أمره أصحاب البصر به . ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديدته ، ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضائه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه ، وكثرة صوره ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أودقة معانيها أو ما أشتملت عليه من مواظ وأدب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه في مواضعها ، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة ^(١) .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدي منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يتحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليميتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا ، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفا ^(٢) .

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدي : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : ”قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤدّيها الصفة“ .

قال : ”وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتنا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان“ . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

(٢)

”إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد“ .

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجيب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والانتقاط اليه، والانجذاب عليه، والجلد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ . تكتب ذروما أدبيا دها نينا

٨ — والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلا لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسأله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلا الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومن هو أخص الناس به ، ولا أن يأتبك فى ذلك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر ، بحيث يجعلك مشاهدا لها كلها فى لحظة واحدة ، عالم بكل علة ، محيطا بكل حجة .

”وبعد فعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تصفحها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الأغترار فيما يتعلق بثياب بدنك ، وأثاث بيتك ، وطرق نفقتك ؛ لأننا لانراك تبتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا بدرهم ولا درهما بدينار ، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقا بك أن تسلم أمر الشعر^(١) الى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال“ .

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشى المعانى والألفاظ ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجد

للأعراب "لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يعتصم إلا بخاطره، ولا يستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلماً ويأخذه تلقناً فمن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استحسن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة العمل . ولكل شيء حد إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطاً . وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه ، وأعاد الى الفساد صحته ، والى القبح حسنه وبهائه » .

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال ، وهذا أحل في النفوس ، وأشهى الى الأسماع ، وأحق بالاستجادة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين في الصقل والتجميل . فاننا نرى للأعراب حرية في الحذف والإيصال لا نجد لها ظلاً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية في الحذف والإيصال هي أخص سمات اللغات الحية . وفي اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة في كتاب الموازنة أن الآمدى يريد بالذات مسألة العمل والتكلف والإغراب بآثار وحش المعاني والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة ، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكان الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عمر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلّة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يتدحه . إلا أن يأتیه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكتنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة ^(١) والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرّر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس ^(٢) والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطباع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادّة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن النثر وعُذِبَ على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث :^(١)

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذنا ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أفأف صب من هوى فأفقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدتها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فهبت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفاخر كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمانع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه ، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدي » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحتى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحرى لا عليه ، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف ، وشعره شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط انحطاطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسَفّ أفضل ممن يسقط ويُسَفّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره ، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف ، والسَّنن المألوف ، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدتها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بخاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف ، فسلك طريقا وعرا ، وأستكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلثه مسروق ، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دون له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبلا كان ^(١) يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحرى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعى شاعراً عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحرى فلم يقصد هذا ولا أعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثر به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجرود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلوله قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارة قبيحة أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تتكبرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، ويخله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يعطى في تأييده من التقرير والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته ووقوعه في تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحترى بكيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو هزل العسكري

١ - في الأدب العربي رجلا ن باسـم العسكري يشـتهـان كثيرا على الباحثين ، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام"^(١) فأـرـخ وفاة أحدهما بـوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد .^(٢)

والعسكري نسبة الى عسكري مكرم ، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب اليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها ، كما يقول ابن خلكان .^(٣)

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يؤد الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكري مكرم قد اختلت أحوالها ، وأحتاج الى كشفها بنفسى ، فأذن له فى ذلك ، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزرها . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقتلتمو ضـعـفـنا فلم تقدر على الوخـدان^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطو ، كالوخذ والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض تزوركم وكم منزل بـمكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لتزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئاً من النثر بخاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله ، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضاً ثم يثني عزيمتي تعوذ أعضائي من الرجفان
فضمنت بيت ابن الشريد كأنما تعمّد تشبيهي به وعناني
”أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان“

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع الصاحب وأنه لا بد من الحمل على النفس ، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زكٍ فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاعلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال ، ولنرشد القارئ إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلاً سواه . ومن

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان، واختار شذرات من ثمرته تمثلها من أوساط الكتاب^(١).

٣ - أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب.

كان أبو هلال أبن النفس، قوى القلب، يترفع عن الدنيا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التلطف إلى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغنم وأرباب الغايات.

كان أبو هلال يتجر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل^(٢)، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري	دليل على أن الأنام قروء
ولا خير فى قوم يذل كرامهم	ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوه مو عني رثاة كسوتى	هجا قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم ^(٣)	وحالى فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا	وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتي	فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم ^(٤)

٤ - وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبيل بالصاحب بن عباد، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ باقوت . (٣) العجم : النوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول إشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغرض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : ” ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جواده غمرا وقرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه ^(١) “ .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم ^(٢) .

(١) ...
(٢) ...

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب ، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : ” وهكذا يفعل الكتاب الحذاق ، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فان حنثت فيما حلفت ، فلا خطوط لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت الى مقام نخر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس ، لا القسم^(١) باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان طريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك ، توقع الظمان للساء الزلال ، والصومام لهلال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاى الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف^(٢) .

٥ — وأما تحامله على المتنبى فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إني لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم
ثم يقول : ” فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل^(٣)
فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التي تغمس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال بحز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي ^(١) .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم دع ما نراك ضعففت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه ^(٢) .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبك من نسل الجديل وشدقم ^(٣) كوم عقائل من عقائل كوم

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبي هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع

أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك

خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله

الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء

مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ،

والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم فحلان

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى في الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله في جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية . فإذا كان المعنى ^(١) سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثميناً . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها ^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف في مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

«البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهي موجودة في كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها في الغرب أكثر لكثرة تصرفها في النثر والنظم والخطب والكتب والسيجج والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة ^(٣) .

(١) السبي ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصنائع .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغة العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدافة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسيخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدرها إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لسدوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يمجيد الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحترى ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المحيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	لـ ولا يرضاك عبده
أملح بملح الشـ	كل أن يخلف وعده
أم جميل بجميل الـ	وجه أن ينقض عهده
ما الذي صدك عني	ليت ما صدك صدـ ^(١)

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلص روى	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق البرد من جوانح خلـ

ريحه تلمس الصدور فتشفي وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دماثة دجن ثم من بعده نضارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقط بركما بشر العليل ببرو
وغيوما مطرّزات الحواشي بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها جمع القطر بين سفلى وعلو
وهي تعطيك حين هبت شمالا برد ماء فيها ورقة جو
وليل أطلن مئة درسي مثلما قد مددن في عمر لهوى^(١)

(١) ض ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتميز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسيجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلم اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئناناً مؤسساً على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء^(١) . وقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليل وأنها أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما آشتل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه : فهي ضالة بين الأمثلة^(٢) لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرأه أنه كتاب نادر المشال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز ، فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك ؛ وتأتّم بما شرحته منه ، وتستدل به على ما ألفيته من جنسه اذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة ، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة ، إن شاء الله^(١) .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فثل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته ، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد^(٢) .

٣ - وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد ، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد ، وإنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة ، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد ينذر أن نجد لها في كتاب سواه ، واليك هذه الدرة التي نقلها عن كثير ابن هراسة في وصية ابنه :

”يا بني ! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره ، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم“^(٣) .

٤ - ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد ، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص ، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية ، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة ، ومن أمثلة

استطراذه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك؟ فقال : ماحل من يفنى ببقائه ، ويستقم بسلامته ، ويؤتى من مأمنه . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلم

وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامر فالأنها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء

وقال ابن الرومي :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها

وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غصص ، وشربة ليس معها شرق؟ فتأمل أمرك .
(١) فكأنك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن توبل في الجاهلية إذ قال :

يود الفتي طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتي بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئاً من مختار شعره في هذا المعنى .
(٢)

(١) في الأصل « الجيب » وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ - ٢٩

٥ - ومما يؤخذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من
الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له ^(١) "أما بعد فإن المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته،
 ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك
 من بر" وكان يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت
 تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل،
 فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب
 إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى،
 لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر
 به هو الإسراف الذي يغضب منه... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله
 عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك
 لمن يشاء! ^(٢)»

٦ - ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا
عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به الى
الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من
تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني،
لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه،
وحسنه وبهائه" ^(٣) ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار
الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها
في الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة
الجيد، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجننا
ملفوظا، ومذموما مردودا ^(٤).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدفن منه الصالحات وان يُسيئ يكن ما أساء النار في رأسى كبكا

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على

صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة ”^(١)

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أجيد لفظه

إذا سَخَفَ معناه .^(٢) والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجوده مطالعه

واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور في حسن رصفه وتأليفه ،

وكمال صوغه وتركيبه .^(٣) وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب .^(٤)

وهذا حق : فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل

كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجرى الى أذهانهم وعقولهم

وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من

الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسبل المتمتع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكورب ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجب

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يئذل وإن عوتب لم يُعْتَب

صبّ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى نم هنيئاً فليست أطعم غمضاً
إن لى من هوائك وجدا قد استمر ملك نومي ومضجعا قد أقضاً
بخفونى فى عبرة ليس ترقا وفبؤادى فى لوعة ما تقضى
بأبى شادن تعلق قلبى يحفون فواتر اللحظة مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتثنى ثنى الغصن غمضاً
واعذارى إليه حين تجافى لى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقييد لا ولثما طوراً وثما وعضاً

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا ولم ترع الذى سلفا
وبنت فلم أذب كمدا عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النسا س من مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شئ آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل
الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود^(١) .

والكلام الجزل يبيىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا
سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة
وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .
والجزالة عند أبى هلال شئ آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول

سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ،
ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غيرة الحداثة ، وردتني اليك الحنكة ، وواعدتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني اليك الضرورة . فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة بأطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
 ” أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستجلسنا الحذر، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بخرة أقوياء“ فعفا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا ينقض رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يُفَرَّق بين المعنى والغرض ، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت في الشعر، وعلى وحدة الفاصلة في النثر، مع أنه يجب التفكير في وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن في جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففي باب الالتفات شواهد بدیعة مسندة الى الأصمعي إذ قال :
 أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا، قال :

أتمنى إذ تودعنا سليمى يعود بشامة؟ سقى البشام

(١) ص ٤٩ (٢) استجلسنا الحذر : اتخذناه مجلسا . والجلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويسط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشافقني ^(١) لا زلت في علل وأيك ناضر ^(٢)

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء ، بلى بمقدار ما يوجب الحججة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ؟ وكلا ليس منك قليل ^(٣)

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عطني المرح أمام مشاهدته ، فما أدري أسمعته بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ، أم روض ممتور ؟ وكلام منشور ، أم وشى منشور ؟ ولم أدر ما أبصرت في أشائه : أبيات شعر ، أم عقود در ؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادي ظمان ، أم غوث سيق الى لهفان ^(٤)» وقد يلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلاً أوس بن حجر في قوله :

ولست بخابئ أبدا طعاما حذار غد ، لكل غد طعام

لما تكرر فيه من لفظ غد ^(٥) .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب في كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير ، وإنما يكفي أن نقول إن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتاب جديد يُقرأ لأول مرة ، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(٣) ص ٣١٣

(٢) ص ٣١٠

(١) العلل ، بالتحريك ، الشرب بعد الشرب تباعا .

(٥) ص ٤١

(٤) ص ٣١٤

١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبايات كافية تميظ الشام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة الخمر الذي ينظر حواله فتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوروبيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من الخجل أن ينسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد ، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضحة في مساوي المتنبي ، والهلباجة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالي والعاطل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا . وهذا الإلحاح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف المروع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكر الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلائله على ثقابة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمي لوحدة القصيد إذ يقول :

”مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتي انفصل واحد عن الآخر وبانيه في صحة التركيب غادر الجسم ذاهبة تتخون محاسنه ، وتعفى معامله . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعامل عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاه فأدّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالبقاع ناره . فن أحسن تخلص شاعر الى معتمده قول النابغة الذبياني :

فكفكفت عنى عبرة فرددتها	على النحر منها مستهل وداع
على حين عاتبت المشيب على الصبا	وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال همّ دون ذلك شاغل	مكان الشغاف تبغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه	أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله وأخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنبوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف يجاهل بدوى إنما يغترف من قلبه قلبه ، ويستمدّ عقوها جسده^(١) .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمدّ عفو هاجسه فيأتي بالمعجز الذي يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقى للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيرا في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن نحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلفّه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضا الى أهل العلم فهجاه ابن الجحاح وغيره بأهـاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمي في العُجب ودعواه التفرد بالحدق واللوزعية والذكاء . والحدقة من أخطر ما يُرزا به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحدقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتنفاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفا به عِلقا علاقة المغرم

بأهله ، منقبا عن أسراره . وُوزِنَتْ في مجلسه تكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدای عن عذاريهما — بأبي علي الفارسی وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبي عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز في علوم العربية تصرفا في أنواعه ، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبي الطيب اللغوی وكان كما قيل حنف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم ، وعُدَّت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمانی وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايما عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غزير الغرارة ، تميد بي أسرار السرور ، ويسرى على رخاء الاقبال ، وأختال في ملاءة العز في بلهنية من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرغا في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحقد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكننا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كباراء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضممر كلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذي وقع في خصومة الحاتمي للتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أو تبعا للوزير المهلبی ، وكان المهلبی يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وأنتظر قدوم المتنبي الى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويذهمهم في شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ - ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاقيا فيه لأول مرة ، وهى رسالة مغرضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر في كل بناء ، والناقد يستطيع كل شيء متى استباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير في الغالب جبّناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال ، ويأتى على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولترك الحاتمي يتحدث قليلا لنرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر ، وأذال ذيول التيه ، وصعّر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه ، رافلا في التيه في برديه ، يحيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مديدة ... حتى تخيل أنه القرع الذى لا يقارع ، والنزيع الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغلب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأ كثيرا كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلبى أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوّه رجل فلا يكون في مملكته أحد يمثله في صناعته ويساويه في منزلته ، نهدت حينئذ متبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أسرارها ، ومقلما أظفاره ، وناشرا لمطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ... الخ » .

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهى تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد ، وفيها فقرات قوية ، كبقوله يجيب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الآلية ، بلا واحد ، أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفذ مذرويه باغيا متهددا (قاموس) .

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

في تشاقل وفتور : ”أنا بخير ، لولا ما جنيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير الى مثلك“ (١) ونقدات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بققرات تفصح عن سرور المهلبى ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ، وهى كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين اتهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية“ (٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن شخص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“ (٣) وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللطف ما لم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعتمها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفصح المتنبي فضيحة شتعاء . وفى الحق أن هذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأوّل وهلة ، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو يلت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التى أخذ عنها فى قول أرسططاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“ (٣) .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
يسدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفصح تنافره حين يُنظر الى أصله في قول
أرسططاليس "روم تقل الطباع من ردئ الأطلاع شديد الامتناع"^(١).

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
"من لم يردك لنفسه فهو النائي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه"^(٢).

وقول المتنبي :

لعل عيبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
"وقد يفسد العضو لصالح أعضاء كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصالح غيرها"^(٢)
وقول المتنبي :

وما التيه طبي فيهمو غير أننى بغيض الى الجاهل المتعاقل
أقل تعليلاً من قول أرسططاليس :
"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه
قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس"^(٣).

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :
"من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم"^(٤).

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين .
 ٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحولُ
 أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
 ”من استمرت عليه الحوادث لم يَألم بحلولها“^(١) .

وقول المتنبي :

إنعم ولَدٌ فللاً مور أواخر أبدا كما كانت لهن أوائلُ
 معنى عادي : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
 ”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“^(٢) .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
 أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
 ”كره ما لا بد من كونه عجز في صحة العقل“^(٣) .

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى استطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم“ .

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبني مضيما حسن بڑته وهل يروق دفيننا جودة الكفن

٩ - ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي ،

وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر : بدليل قوله في أول المراجعة " قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار

وفارقه النزق الذي ساد في رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فان أحق ما آحتكت اليه نفوس أولى النظر ، وانقادت اليه آراء أهل الفكر ،

وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعبرين : العدل ، فانه سنخ^(١) العقل ، وحليف النهى ، وصنو الفهم ، وعدو الهوى " .

١٠ - هذا وكان الحاتمي متين الشعر ، كما كان رصين النثر ، وهو الذي يقول :

لي حبيب لو قيل لي ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون
أشتهى أن أحل في كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل في قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قصرا كعارض البرق في أفق الدجى برقاً
قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل في وصف الثريا :

وليل أقمتا فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح في الليل عسكراً
ونجم الثريا في السماء كأنه على حلة زرقاء جيب مدنراً

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمة عدة

مقطوعات فليرجع إليها القارئ هناك^(٢) .

(١) السنخ ، بالكسر ، الأصل . (٢) ج ٣ ص ١٢

١١ - أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان - كما ذكر ابن النديم^(١) - وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الخد^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا تُتف يسيرة ، وأظهر أخباره أنه كان رجلاً غنيا كريماً يُفَضِّل على أساتذته وتلاميذه ، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة خمر وزجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين ؟ ! » يعني قارورة الخمر وقارورة النحر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتاباً كبيراً . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفاً بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعهه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إجمام^(١) . ولوبقيت كتب المرزباني كلها أو جلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب ، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل . غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون . وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين ، وقد حدّثنا أنه رأى كتاب المرزباني عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين . وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتاباً آخر اسمه « المفيد » يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال . ويشتمل الفصل الثاني على ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان ، والعور ، والعميان والعمش والبرصان ، وسائر ما يؤثر في الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضواً . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبراً وفي الاسلام تدنياً ، ومن ترك المديح ترفعاً ، والهجاء تكهماً ، والغزل تعففاً ، ومن أنفذ شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميري والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه « الرياض » ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ - وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزباني ففي مقدور القارئ أن يرجع إليه في الفهرست^(٢) ، ولكن يهمنّا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية .

(٢) أنظر ص ١٩٠ - ١٩٣

(١) ياقوت ج ٣ ص ١٠٣

فقد عني الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع
لباهلين كتاباً، وللمحدثين كتاباً، وعني كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون
الأدبية ككتابها عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبرق والرياح
والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في حملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد
والزهاد والحجاجة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من
مدح وذم، وكتابها عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والترجس وجميع
الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابها في نسخ العهود إلى القضاة
وكتابها عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة
آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء. فمن الذي يعرف اليوم هذا
المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجترنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني
لم يجتز منه غير خمسة قرون؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً
سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه
مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١).

٤ - ولم يطبع من مؤلفات المرزباني - فيما علمنا - غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية
نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه
اهتم بذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن
يحتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب
الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء
والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسيج وغير ذلك من سائر
ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معاييرهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضرره وعروضه وأعيانه ونختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبتته لا نجده اليوم في غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبثّرة هنا وهناك. فأت حين تطلع على كتاب الموشح ترى موادّه معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطأ أو جرير مثلاً لما استطعت أن تجدّها منظّمة على نحو ما تجدّها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيراً ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلاً في نقد قول الطائي :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالناقعاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة في كلامهم^(٢)."

ومعنى هذا أن الغريب الوحش قد يحسن استعماله إذا آطرد في كلام متأدب غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحش من الكلام يفهمه الوحش من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزباني والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون.

(١) راجع مقدمة الموشح. (٢) الموشح ص ٣١١

٦ — ولا يخلو المرزباني — على فضله — من تحامل : فقد رأيتُه يغض من قيمة

مختارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقتنعوا باختياره لهم فتعجب عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يمنح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه“ .

ففي هذه الفقرة تجنّ شديد على أبي تمام وإزاء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذي مر ببال المرزباني مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخلت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقاً وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إثمًا ولا جناية ، حتى صمح للمرزباني على نزاهته أن يتهمه بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الخامسة بابين لم نجد لهما مثيلاً في مجموعة أدبية وهما باب المراثي و باب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزباني أن يسوق المأخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ،

وأحياناً يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن

بعض معاصريه :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فعلم أني قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أترك أعلم بهذا مني ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتمى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١)“ .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال مثقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يجب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكتبني المرزباني بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة جدا“^(١) .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بلى إن للعينين في الصبح راحة
لطحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أي حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد الحبيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لا بد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه“^(٢) . وللرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة
فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ
المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهداً بسم . وأجود من هذا البيت
لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث واثٍ يكيدها
مع الواصل الواثي وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يزودها^(١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني
عن قولك :

كأن بني نهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ
أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء
حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعارض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا اذا
لم يكن معها قمر^(٢) .

٨ — وقد اشار المرزباني في غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدّث عما أخذ على
امريء القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلابه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن
خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض
الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل
فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا
البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا
قول النابغة الذبياني في اعتذاره الى النعمان :

ولست بمستيق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب

فكلامه فى أوّل البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو أبتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لا عذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج الى سواه .^(١)

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة ، وإن ظن ناس غير ذلك ، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت ، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض ، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لابی العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلاً ، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما	والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخم لما	لمت على الحب فذرني وما
ألقى فانى لست أدري بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بياىب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما	أخطأ بها قلبي ، ولكنما
سهماه عيان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشع عبارات نقدية تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف وليتأمل القارئ

ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفظته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط“^(١).

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أبقيت مني معلق بعود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيطة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى ممرضى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجدنى يده

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدمها الشاعر في وصف

آثار النحول .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزعة

الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصنع كلامه بصيغة البحث الصرف

فقد حدثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

سخافة اللفظ وهلهة النسيج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجأ نحواً من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبؤ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائح الجماعة توفر حظها منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

” ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انستر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل ^(١) “ .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه الهفوات تتكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلفل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لاتجانب الحادة السوية إلا وهى نائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يحىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انستر عنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .

والموشح مطبوع يستطيع الرجوع إليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أظرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء في ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه !»

الباب الخامس

كتاب الأئمة والمنازلة

١ - أبو حيان التوحيدى

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين :

الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتبا مجيدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطقيا خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البحرى مثلا يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقيقته على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرفى تفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحاجب إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضعينة والبغض والموجدة على الثائرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعدا يزجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم ترددوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص فى كتاب الصداقة والصدق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا النموض في حياة التوحيدي قيمة في فهم جادّه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدي يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فلاذكر أن تلك الثورة شبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجري بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة، فقصد ابن العميد واستظل بفنائيه حيناً، ثم تحوّل إلى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينقذ غلته، ويطفئ صدهاء . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتون متسعٍ يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين)^(١) أنه لما قدم على الصاحب قدم إليه نجاح بن سامة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا انسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدي وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراق التي لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدي عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصله نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش، وبث الفضائح، وذكر ما يسمح مسموعة، ويكره التحدث به، سوى ما فاتني من حديثه، فاني فارقت سنة ٣٧٠“ .

”وماذني إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خصصت بخساسته وحدي، أو وجب أن أعامل بها دون غيري“^(١).

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدت خمسين حولا ما على يد لأجني ولا فضل لذي رحم
الحمد لله شكرا قد قنعت فلا أشكو لئما ولا أطرى أبا كرم

ثم صرح بأنه كان يمتنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبدور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد الأنام إذا كا ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبدلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء“^(٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولا برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلبا للمال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معاني الأثرة والشح والضعف والجحود .

أعلى مقالة
المتنبي به
لأنه المتنبي هو
السلطة والذوق

٥ — وما زال التوحيدي يقدم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبيعة الجاح في أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد مذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

✓ «على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مـرة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذي شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

”بحوابي لك : أن عياني منهم في الحياة هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروعة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، وي طرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائلك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما أقدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقليل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذي كانت تشور

مخرجاته بلا انقطاع بين التوحيدي وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ما هو الضمير ، وما هي

متانة الخلق ، وماعنى الكرامة ، وماملول الإباء ، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملق والمداهنة والرياء ، فشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضره في نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ — وفي تلك المعركة الدامية التي خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأخش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص ، قبل في جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : في حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدراج إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى دليـل على أن الأناـم قـرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .

ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى

ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن

لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن

شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء

وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق

المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على

حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد ، أو شئ آخر من جنسه ، وأنت تدعى

الحكمة وتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك، وأطلع على شرك^(١) وشرك^(٢).

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقوق، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق.

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب.



٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة. والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون. وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه الينا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتيان فى كتاب المقاسبات. وكتاب المقاسبات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعاً متقناً معنياً به من بعض الوجوه. وكتاب المقاسبات لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الإسلامية. ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكي الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين. وأدق ما يلاحظ على كتاب المقاسبات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فاذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهوروا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أناره أبو حيان التوحيدي في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبي إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الحسيسة التي هي مشكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون^(١) ؟

وفي الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى للذات الحسية شأنًا غير قليل ، وجعلها من الغايات التي يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهي الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتمثل هذه الشخصية الرائعة في رسائله الوجدانية ، وفي استطراداته الممتعة التي جرى بها قلمه في كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوين ونشأ في هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد ليليه . وانك لترثى له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ” والخوارزمي^(٢)

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هذا الذي يعجب به التوحيدي ويتحدث عنه ويتأسي به رجل غاني في دهره مرارة الجور والخيف، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غص الاهاب، فلا عجب أن يردد "التوحيدي" شكاته وأنيته وهو الذي رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد.

١٠ - ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل في تصوير الجانب الوجداني من التوحيدي رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التي نقلناها آنفا عن الخوارزمي، وانتهى بقوله في الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذي قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ما هم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس".

وكتاب الصداقة والصديق كتب في أدق وقت من حياة التوحيدي، كتب حين بلغت شمس رأس الحائط كما قال، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنصح ثمرة من أدب التوحيدي . وليس يهمنا في هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنا بنوع خاص ما مر فيه من الصور الفنية الرائعة التي جرى بها قلمه البليغ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية في صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا في أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسبات .

١١ - والصور التي يقدمها التوحيدي تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم في فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر في ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يتد منها شيء . ولننظر كيف يقول في تشعب أنفاس الناس في الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولي أو خليف . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشع أو مداح أو مكاشف أو حاسد ، أو شامت ، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو منزل أو مضل أو مغل“^(١) .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروعة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأنزّه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بدوى الشيب والكهولة ، وأرمى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فأما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتيم والتهم والهوى والصباية والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأعراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“^(٢) .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تفرع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفرع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ، وينزع الى الوالدة لشفتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ، ويشتاق الى أخته للصيانة لها والترقح اليها ، والى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم ، ويصبو الى عشيقه لأن ذاك شئ يحده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض ، وفى المجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوقى الى كل من نعتته لك ، لأنى أبائته بما أجل أبى عنه ، وأجبا من أمى فيه ، وأطويه عن أختى نجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يققا ما بينى وبينه . فأما العشيقه فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظره ، ونصيب من زيارته ، وتحفة من حديث . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الى دون الصديق الذى حريمى له مباح ، وسارحى عنده مُراح ، أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت ، وأجد فائتى عنده اذا دنوت ، اذا عززت له ذل لى ، واذا ذلت له عز بى ، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة ، واذا تصامتنا تاجينا بلسان الثقة ، لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب ، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب .^(١)

وقد عرض التوحيدى للصدقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدى حين قال :

”قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية ، وصدقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومواتاة خلقية ، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى ! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبه ومظاهرة غريبة ، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات ، والاختيارات ، والشهوات ، والطلبات . وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فتراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل“ .

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدى به في الأول قد حجبني عن موجدتى عليه في الثاني، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، وإليه مفرع، وقبلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نلت عن صدرى الى لفظى، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع إليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُرِّ النَّعم. وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحياء كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الى روحها، وخالط بى طيبتها وحلاوتها^(١).

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نلت عن صدرى الى لفظى".

هيات هيات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق إليها إلا الملهمون.

* * *

١٤ - وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر اتقاءً لسيخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشرعية طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للرضى حتى لا يترايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة - هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا - وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغها لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هى الخلود والديمومة^(١).

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم. أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد. فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان^(٢).

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هذا الكتاب . ولما رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها قليل . على أننا لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الانسان والحيوان أمام محكمة الجن » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أئبناها هناك فى فصل (السجع والازدواج) .

٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل إلى الثبوت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلي صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاخص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك إلى أن حريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنيء عميد الملك باتفاق الأضي والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	أسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بانبئة العنب
خلائق خيرت في كل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورد على العمر من كشب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت إلى أقصى مدى عمرى	وكل غربي واستأنست بالنوب
إذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نائفا في جذوة اللهب

٣ - شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدي، فقد غمزته في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"^(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثة بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياء الرازي مملوك الهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العاصري الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أوقع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولننظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء: قال لي مرة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا - وهو يعني ابن العميد - في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطل الحديث وقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكننت تخيله في نفسك فخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك وأطلع على شرك^(١) وشرك^(١) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا التلطف والتودد إلى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالنوحيدى على أديب موفقى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لا يحد غير هذا الشناء الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقي اللفظ“^(٢) .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحا يتملقه لئام الشعراء والكتّاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذاني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والضيت فيما يمتز به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والتبيل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب إلى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا ترحل لا قريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره ، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه ، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى وبينه عتاب لا يترع كنفه ، ولا يجذب أنفه ، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كعريضة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة ، كغناء بحظة ، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا ، وتأبط شرا ، وأوحش حرا ، وأوجب عذرا ، بل سبجان من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقته ، وأستخيل صاعقته ، أنا المساء إليه ، والمجنى عليه ، والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كما بليت ، ورمى من الحسدة بما رميت ، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، إعتذر مظلوما ، وأحسن ملوما ، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد ، وأولاد العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية ، لضىن بعشرة غريب إذا بدر ، وبعيد إذا حضر ، ولصان مجلسه عمن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حكى له ، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستفز ، وجبلا لا يهز ، وشوا إليه بما أرتوا به نارهم . ورد على ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلم

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى بحمرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ، وقصاراهم نار يشبونها ، أو عقرب يدبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا،
لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاي إن عدت ولم ترض لي	أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وأتعل ناظري	وصد بكفى حمة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خلب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجتن الغلظة من سيدي	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة:
”أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها، وما أذهبتني عن
هذه الطريقة وما أبعدني عنها ! وقد نزه الله لساني عن الفحشاء، وسمعي عن الإصغاء،
وما يتخذ العدو بينهما مجالا“^(٢).

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من
المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة
ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف
العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظلالا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس
وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء
فاقتفى مناهج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية .
وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتمل بها الصوفية

والناسكون والزاهدون، بل ساير العقل وصاحبه وأنس به واطمان إليه، ثم اتخذها أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يحتب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لما اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق . وإلى القارئ وصيته — أودستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربه وهو يومئذ آمن فى سربه ، معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهد على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مأرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشرعية ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التى تحصل

في شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصحة ، والههم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقبل الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال إليه ^(١) .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرّفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء فى أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمخالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع إلا بالتأديب ^(١) " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ^(٢) " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه "ليس شىء من الأخلاق طبعيا للانسان" وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، ومزيتة أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشهد وتعين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وإكاله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقيم منه فيخفيه بضروب من الخيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير^(١) والشرير .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته في تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع أرسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا في أكثر الأحوال ، لأنه لا يمشى الى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجسد والردى والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بخافتها فلسفة اليونان بزوايع وأعاصير أطارت ما كان آستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتي من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم في ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبق لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للخص وتقويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففي رجال اليوم من له في كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم في توافقههم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون في المساء صدى لكتاب قرأه في الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرنا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ - رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر - فيما يظهر - بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أولاً وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجوداً مستقلاً عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون - وما أكثر ما يضلون ! - إلا ليأسهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هني إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئناً إلى أنه متى صححت المقدمات حققت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجد بين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساماً والأعراض أعراضاً حكماً بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص" ^(١) .

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للتزاع إلا النفس وهى عنده تضاد الأجسام فى الحدود والخواص .

”وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلاً من الأشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شىء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شىء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثانى أيضاً تاماً كاملاً ، ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس ، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شىء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشىء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

عن الجسم وتفرد لها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما أدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والجمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يعتاج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضيها نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتملاً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاماً . أما الخلقة فلا أنه مكتسب بما يوافقه من وبر وصور وشعور وريش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لا قط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، ويعتد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدرت له . فأما الإنسان فإنه خالق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاوين حتى يكونوا عدّة كثيرة وجماعة وافرة ، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبرا ومدرا أو على رأس جبل^(١) .

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معاونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون^(٢) وإن كان لا يشعر بذلك^(٢) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ، والشرائع التي نعيش في حمائها ، كل أولئك جزء من جهود إنسانية عديدة

(١) راجع ص ٦٣ من الفوز الأصغر . (٢) راجع ص ٦٤

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنّة في بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلتعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسيط القول في الصداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظّاء ، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المحترّب الذي صادق وعادي وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقد نفتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة في غاية الدقة : فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يغني عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ - ابن نباتة الخطيب

١ - اشتهر ابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصالح الصفدى وهى مذكورة في خزنة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)^(١) والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر في عدة مواطن في كتابه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوبا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأنى بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوماً إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر أليسة برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسجددهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنْ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل

فى فمى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحة ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يتحدث إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفلته فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ،

فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها
سطوان بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضخى لك أماناً

والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة ، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى
ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صور له وهمه
أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه
الرؤيا تشبیه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له :
ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفرلى بقولى :

تكثر ما استطعت من الخطايا فانك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت فى كتاب الأخلاق عند الغزالي الى المنامات التى رآها أنصار الغزالي وخصومه
بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالي
من أصحاب الكرامات ، كما توهم بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه
منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ،
وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظ ، وعلى
الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ،
وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء » .^(١)

٤ — هذا الجو الذى أحاط بابن نباتة ، جو التقي والصلاح والزهد ، أثر فى خطبه أبلغ
تأثير ، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب ،
وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جو آخر أثر فى خطبه وأعطاه صبغة قوية رهيبه ،
ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا
أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحضر الناس عليه ويحتمهم على نصره سيف الدولة .

٥ - ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر^(١) أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغرمون بها ويكون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيرا في الجماهير التي لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون في البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائماً عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوي السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لما لا يدركون من الزعرات الانسانية الكامنة التي يهيجها النغم والإيقاع .

٦ - وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكت فيهم طماعية التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد “^(٢) .

وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طماعية “ و ” رفاهية “ وبين ” التخليد “ و ” التمهيد “ ... وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا “^(٣) .

فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” القضاء “ و ” العفاء “ وبين ” أطرقوا “ و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فهلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غص الرعوس ، وفض الطروس “^(٤) .

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

ومما يحمده ابن نباتة تضحين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية في سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له ابن الأثير العبارات الآتية :

” فيأيتها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون “ .

وقوله في ذكر يوم القيامة :

” هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرايا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا “ . وقوله أيضا ” هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب “ .

وهذه التضمينات كثيرة جدًا في خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يجنى

(١)

في هذا النوع .

٧ — ويجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لا بن نباتة هو الكلف بالخيال .

والخيال إذا ورد في أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخييل البارع قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج في عرفات :

” يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون على من فجاج الأرض وأقطارها ،

أنضاء على الأنضاء ، خواضا لحج الرمضاء “ وأنا بعجيني الخيال في قوله ” أنضاء على الأنضاء “

(٢)

يريد الحجاج الذين أنضاءهم التسقي والخوف على المطايا التي أنضاءها السير والسرى . وقوله

”خَوَاضاً لِحَجِّ الرَّمْضَاءِ“ فيه أيضاً خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرَّمْضَاءِ ، لأن أيام الحج لا تكون دائماً في القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخييل الى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .
 ”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إيطاع السراب ، نتهاش على حطامها تهاش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن الى المنكر سكون الباني بالحدود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب“^(١) ؛

وقوله في خطبة أخرى : ”إن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غممة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال“^(٢) .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائماً في حدود الأفكار السطحية ، فيبدئ ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء ، ثم يخطب في فضل رجب ، ثم يودّعه ليستقبل شعبان ، ثم يودّع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهتم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضاً خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتب والرائى السديد . وهي دائماً دون خطب على بن أبى طالب التي كان يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : ”فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء“^(٣) وقوله : ”واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عُنقها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلاً قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ،

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية

(٢) ص ١٨٤

(٣) ص ١٨٣

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها ،
 وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهول باحتشاد عبدة صُلبانه ،
 وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه ؛ وجاء الحق وبطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات
 والآفاق ، فأحمدوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ،
 وأضربوا ببيض الصفاح شجبه ، وأركبوا ببذل الأرواح لجهه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف
 تساس العامة وكيف تغرس في صدورهم بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدّي الأعراس
 المرجوة من مثله في تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت
 مثلاً في براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها
 عي ، والتدلى في إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

(١) ص ٢٠٩ و ٢١٠

(١)

٥ - أبو محمد بن حزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل في المأل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد.

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع.

ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقليل والقال . وأول ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" في ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بتروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جداً في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً ألف في "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا في اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة ، لأن أوروبا في القرن العاشر ليلاد كانت معارفها قليلة جداً في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقاً أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماماً من أئمة الدين ، ومثالاً يُحتذى في أدب النفس ، وكرم الطبع ، ومتانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقاً بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لنشره الفنى في هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ في قرطبة . وتوفي سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وان مكانا ضاق غنى لضيق * على أنه فيج مهمه سب

وان رجالا ضيعوني لضيع * وإن زمانا لم أنل خصبه جذب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم :
جولد يزهير ، ودوزى ، وبروكلمان ، والدكتور سنوك هوجرنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق
المستشرقون الألمان والنمسيون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمريكيون إلى استغلال
ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون ويعيدون حتى جاء
المسيو مرسيه فوضع بحثاً هاماً جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من
الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق
الحمامة فراجعته مراعاة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين
أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة
باريس فأقرها المسيو دي مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ - في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يتحدثنا بأنه كانت له

صبوات في عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأمل نار على القلب تالفح	ودمع على الحدين يهيم ويسفح
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه	فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها	ففى القلب داء للغرام مبرح ^(١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأثر . ويقول

في ذلك :

”وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يجب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه
ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ،
وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو
والتوق : فما نسيت لى وذا قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدّم لى ليغصّنى بالماء ، ويشرقنى

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملئت شيئا قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الآلاف والاخوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني . ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياذ زناها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتراج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	ثم سريعا عن قريب نفادها
ولكنني أرض عز أز صليبة	منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها	فليست تبالي أن يجود عهادها ^(١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبليغ

منها في شعر ولا نثر . وأنظر كيف يقول :

”إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الانساف وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستريدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسامة ولا رهقتني فترة . ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازدددت دنوا ازدددت تلددا^(٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . فقلت في ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شقَّ بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حيت فان أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلمنا من البين ، ورغبا
عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقدنا العذال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح
الله لهما رزقا دازا ، وعيشا قازا ، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال^(١) .

٤ - وكان ابن خزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة
الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يجد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي
عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن
الواقع لا عن الخيال . وقد تلقط كثيرا من محاسن العشاق ومساوئهم ودون في كتابه أخبارا
غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذي لا يستطيع قوله :

” وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زمنا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم
وأستيفائه حتى دعت نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفي ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حت إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قربكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى
كذا حائر فى الليل ضاقت وجوهه رأى البرق فى داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى^(٢)

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب - وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت
التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس - :
” وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبجلها في المساء
ونحو أثرها قرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فأثرت أن يبقى وداد ويمتحي مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه مية ربه ولم يدره اذ نمقته الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان : إما لخصر في الانسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم حتى أن لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن رد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدي ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويحيد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار ، داني المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . وأما سقى الخبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقى الخبر بالريق . وفي ذلك أقول :

جواب أتانى عن كتاب بعثته فسكن مهتاجا وهيج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبه فعال محب ليس فى الود خائنا
فما زال ماء العين يحو سطوره فيماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعى أول الخط بينا وأضحى بدمعى آخر الخط بائنا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع فى يده بسكين له فسال الدم وأستمد منه
(١) وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصبغ اللك “ .

٥ — وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التى كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين فى تلك العصور .

وفى اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب فى الأندلس كانوا ينظرون الى الحب فى القرن العاشر بنفس العين التى كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى الحب فى القرن التاسع عشر .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق .
ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الاسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربي
بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب
كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام
في الحب لونا من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الانسانية التي لا تخلو من صبوات
في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها
الى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن
الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر: لأن الفتاة التي أحبها لأول
عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفي هذا يقول :

”ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يهتمون في تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم
ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا أحبا بالهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند
الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيرا هم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى
أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات
ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الحلقة ولا مالوا الى سواها . بل صارت
تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا .
وانقضت أعمارهم حنيننا منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه
ولا يقولون في طي عقدهم بغيره . واني لأعرف من كان في جيد حبيبته بعض الوقص ^(٢) فما

(١) في الأصل (الخلقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيذ ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي الخطوظ في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، واني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت لا تواتيني نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله^(١) . ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل في علم النفس وبمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة في تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة لنرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال فقد شق الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الخطوظ في خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كرهه وبعضها مقبول، وفقا لما تتلون به من غدر أو وفاء، وهى في حالها سم حلو المذاق ، فهى سر ما تلقى في دنيانا من رشد وغى ، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل في مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت في الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

وإني لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير في تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير في حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية في الأذواق والأحاسيس ، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين في فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع مقال الأسلاف في صدق وإخلاص ، نجد الطبيعة الانسانية هي هي لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر في تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القدم" لوًا لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا في شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

"لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت في مجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن، ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى في الخط . ولم يكن وكدى وإعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا في سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل^(١) ."

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء في الأندلس في أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء في منازل الوزراء — كما هو الحال في جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التي كان يتلقى فيها الدروس، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمنية الممتنى، وغاية في حسن

الخلق والخلق . وقد بفعته فيها الأقدار واخترمتها الليالي وسنه دون العشرين وكانت هي
دونه في السن وفي بغيته بها يقول :

”لقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفترلي دمة على جمود عيني وقلة
إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد
وطارف ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حي لها
على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده“^(١) .

٨ — تحدث ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها ، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع
والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

”أدركت بنت زكريا بن يحيى التيمى ، وكانت متروجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى
ابن إسحاق فعاجلته المنايا وهما في أغص عيشتهما ، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليه
أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات . وجعته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
بعده الى حين موتها“^(٢) .

وهذه قصة تستثير الدمع ، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجهة قوله في كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبى بكر أنى رحمه الله وكان متروجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر
الأعلى أيام المنصور أبى عامر . وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلاها .
ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما
للكلمة التى لا قدر لها : فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها
حبه وأضناها الوجد فيه وأنخلها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم ، لا يليها من الدنيا
شىء ، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها ، الى أن توفى أنى
رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

في اليوم الذي أكل فيه هوتحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جوارها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم الخاق به^(١) .

٩ - والمرأة - كما عرفها ابن حزم - أكثر مواساة وإسعادا في الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانه ما ليس عند الرجال . ويقول في ذلك :

”وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة . وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا في الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرفن الاشفاق محضا الى غيرهن .

وإني لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جوارها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتهك فلانة تعرف ذلك وعندها جليلة أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإني لأعلم امرأة جلييلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فعرفتse الأمر فرام الإنكار فلم يتهيا له ذلك . فقالت له : مالك ؟ ومن ذا الذى عَصِمَ ؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلع على سركما أحدا أبدا ، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد^(٢) .

وهذه الفقرة تشعرننا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

١٠ — وقد فكر ابن حزم في تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر في تمكن طبع المواساة من النساء أنهم متفرغات البال من كل شيء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معاني المواساة والإسعاد . ومن هنا يحدثنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق الى الرجال^(١) .

وهذا الذي يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل في فساد النساء . وهو كذلك الأصل في فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لاتقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتي ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما يتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهم أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهي كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقولة على التزق والطيش والاسراف في الشهوات . وملاك الأمر في هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ — ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء في الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

”ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإنى رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة — أعنى الصلاح — غلطا بعيدا . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي اذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي اذا ضُبطت لم تنضبط ، واذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة . ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويجب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء ^(١) .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدرس المرأة ، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكأن يطلعنه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فان التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا أنى برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجزة ^(٢) وإنى أقسم بالله أجل الأقسام إنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى ^(٣) » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجزة ، بالضم ، معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة فى الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يهتمونه بالميل الى الإثم والفسوق . بخاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .
حلفت فلم أترك لنفسك ريبه وليس وراء الله للمرء مذهب

وقد يهزّ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته فى درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا استبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث الا الفاسقون . وكان ابن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل فى ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع الى حقيقة ثابتة : فان الفسق حجاب يكشف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يمتثلون الحب إلا موصولا بالفسوق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحتر مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فان الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرارها من يسومونه الهوان حين يطمعون فى الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى فى درسه أعمار الأئمة وعطاء الباحثين فإنه أشرف وأنفس ما فى الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون إلى درس ما فى وجوههم من دمامة ، وما فى طباعهم من عوج ، وما فى عقولهم من آلتواء . إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت فى مواجهته إلا أصحاب العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب فى عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال !

(١)

٦ - أبو منصور الثعالبي

١ - كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوع النجم في الغياهب » .^(٢)

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذي يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فترا قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالي ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ - كان الثعالبي شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره في الطبقة العالية . وقد يستجاد

قوله في النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوقي في تلهيها
ولم أجد حيلة تبقى على رمي قبلت عين رسولي إذ رآك بها

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكننا لاحظنا أن له

اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره بخيد، يغلب عليه السجع، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض. وانظر قوله في وصف عبيد الله الميكالي: «ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره على فكره، من ملح تترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها... وأيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتراس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من أحلاظه، وآتتهت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدني أدام الله تأييده لابن الرومي:

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بغير وزآباد، إحدى قراه برستاق جوين، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبل القطر! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعياها الواصفون، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون. فاذا تذكرتها في تلك المراجع التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها. طوى لها الديباج الخسرواني، ونفى معها الوشى الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسنما، وخيرا عميا، وارتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونعيا^(١).

٣ — أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات

القلوب، ونزوات الرأس، وثورات العقول. وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاختفاق، وتمرس بأهوال الاقبال والادبار، والغنى والفقر، والنعيم والبؤس، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال.

(١) (أنظر مقدمة فقه اللغة).

وإنما هو كاتب شغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى اختلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والعبقريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ — للثعالبي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكنايات، وضعه للكناية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بالفاظ مقبولة تؤدى المعنى، وتحسن القبيح، وتلطّف الكثيف، فيحصل بها المراد مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلا على تفوقه في الابتكار . ولكنني رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٢ يذكّر في مقدمة كتابه في الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه، ولم يزاحم من قبل عليه، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضا يدعى السبق ادعاء، وأن المؤلفين من قبله قد نحووا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكنايات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما ادّعاء الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع، لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براعة العرب وافتنانهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يستحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا تخيرنا أقل ما فيه روعة، إشارا للتحفظ والوقار .

حكى الصولى عن المكتفى في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنت فتمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعنا قبل وقتي هذا وإنما ساقها اللفظ .
(١)

وكتب صاحب : إن سيدى أمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار
فكيف شاهد بحريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟
(وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له
يزيد بن منصور فى دار المهدي : يا شيخ ما صناعتك ؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى صاحب
أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل تُقب الدرُّ
وله يقول أيضا :

قلبي على الجمرة يا بابا العلا فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه وهل كحلت الناظر الأحولا
ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا وآزدد بزوجتك آرتياحا
قد رُضت طرفك خاليا فهل آستلنت له جماحا
وطرقت منغلقا فهل سننى الإله له أنفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصدف وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت ليلا بلا حشمة لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال الثعالبي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام
والشراب ويلم بأهله احتياطا على دينه وتعففا بالحلال عما عساه تتوق نفسه اليه من الحرام
إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى
فصلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطانى لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ،
ولطف كتابته ، وهو :

”وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به الى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينه وبين سداده“^(١).

٥ — ومن مؤلفات الثعالبي « كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة الى أشياء مختلفة يتمثل بها ، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها ، كقولهم غراب نوح ، ونار ابراهيم ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وجمار عزيز ، وكقولهم كثر النطف ، وقوس حاجب ، وقرطا مارية ، وصحيفة المتلمس ، وحديث خرافة ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سنمار ، ويوم عبيد ، وعطر منشم ، ونسر لقمان ، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لغته في سائر كتبه بالخلق من السجع ، والجري على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء . وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لعهد من الطرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص . وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . وهذه الملاحظة قيمتها ، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة ، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه ، وعدوها من العلم الصحيح .

فمن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ : الثعابين لا تكون إلا بمصر واليهما حوّل الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿ فَأَلْقِ مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ ، يعنى أنه حولها ثعبانا . والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم ، فليس له عدو إلا النمس وهي إحدى عجائب الدنيا ، وذلك أنها دويبة متحركة ، فإذا رأت الثعبان دنت منه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتمس في بطنها ريحا ،

وتزفر زفرة فتقدّ الثعبان قطعيتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع
لأهلها من القنافذ لأهل سنجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر
كل هذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وان كان فى فطرة الأهالى عداوة
الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبي لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش
والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحدق فى عمل الطُرف ، يقولون :
أهل الدنيا ما عدانا عُمى ، إلا أهل بابل ، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى خراط التماثيل ،
والإبداع فى عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصوّرهم يصوّر الانسان ولا يتغادر منه شيئا ،
ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك
الشامت وضحك النجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوّر
صورة فى صورة^(١) .

وهذا الذى يراه الثعالبي غريبا من أهل الصين عادى لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعنى
بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبي وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يجاربه
رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع
الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فان العرب تقول : عرق الخال لا ينام . يريدون
أن عرق الخال أنزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر
وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فاذا
أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشرين من يمينك وعشرين من شمالك
وعشرين من خلفك وعشرين من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الأبل

والبقر والشيء . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطئة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منها الرحم وهو القالب الذي يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القالب . فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القالب وفي قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يعتنذى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التي فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام في جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء في أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهي تغذوه بدمها مرتين ، وتزيد في خلقه من أجزائها دفعيتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال .^(١)

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم في بعض تفاصيله ، ولكنه في جملة يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام بفضل الحال وعدوه من جملة الآباء .

٧ — وفي ثمار القلوب إشارة إلى كتيبٍ للثعالبي اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصديد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشيء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبه به الحشو في الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر في كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محلم :
 إن الثمانين وبلغتها قد أوججت سمعى إلى ترجان
 فقله (و بلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملة . قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبي الفضل بن العميد فقال لي : إمض إلى أبي الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانيا في كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرت إليه وبلغته الرسالة فقال : سألتني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى في حبس النعمان :

فلو كنت الأسير - ولا تكنه ! - اذن علمت معدي ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير (وبلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحيى بن أكرم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لاله، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة. (١١)
وكان صاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداع في خدود المرد الملاح .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لا سيما وقد أطل التنقيب عن دقائق التعابير التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والحوارزمي وبديع الزمان .

٨ - وفي ثمار القلوب تفسير روائى لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقى وبيته تلقاء وجهه فنظر فاذا برجل قد عانق امرأته يقبلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رآته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع، فنظر يمنة ويسرة فلم ير شيئا، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثاني قالت المرأة: هل لك في أن اكفيك السقى وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام في البيت، وانطلقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه . فقال : ويلك ! مدهاك؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معانقا لها؟ فقال : والله ما كان عندي امرأة! قالت : بل أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء . فتحالفوا. فلما أكرث قال : إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق (٢)

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفاصيص . وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيرا للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبي "يتيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر في تحريره والإضافة إليه عدة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثله من يتأنق في بناء داره التي هي عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويستجدها على أنحاء عدة وهيآت مختلفة ، فإن مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال^(١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول : القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم . والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطائرين على الحضرة بخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطائرين عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبي في اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة ، ولكن سجعته على كل

حال مقبول .

(١) ص ٤ من المقدمة .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فاذا بدا له أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقار بها على شعراء سائر البلدان .

”والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق مجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أيامهم“^(١) .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبي والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالي في اليتيمة مفتون بالاسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله في ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني الكاتب ”يغرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“^(٢) . وأبو الفرج البغا ”ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت بل حب الغمام“^(٣) .

وأبو القاسم الاسكافي ”لسان حراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله في البراعة والصناعة“^(٤) .

وبديع الزمان ”نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس“^(٥) . وعبد الرحمن الشيرازي ”روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب“^(٦) .

(١) ص ٦	(٢) ص ٧٠ ج ٤	(٣) ص ١٧٣ ج ١	(٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ١٦٧ ج ٤	(٦) ص ٩٧ ج ٣		

١٢ - ومع أن الثعالب يميل إلى الطنطنة في التعريف بالكتاب والشعراء فإنه لا يلتزم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويغاب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنميق الإنشاء، واذ ذلك لا يكون مشغولا بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباته السعدي "من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممر النظام، يشتمل على غرد من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب"^(١).

وحينا يقول في محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفي أقسام الحسن، ونثر كنثر الورد، ونظم كنظم الدر"^(٢).

وآنا يقول في المتنبي "نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضبعه، ورفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه"^(٣).

١٣ - ولتقيد هنا أن الثعالب كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما في نثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى يمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وإن كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الاتهاب.^(٤)

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقتل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد ينذر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحدثنا عنه، وفي أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبي عني بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبي كتاب "فقه اللغة" وهو كتاب جيد في ثلاثين بابا رتبته فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة في جملته من صنع الثعالبي ، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والحوارزمي وأبي الحسن الجرجاني ، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التي نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في كتابه . وهو يذكر في الفصول التي ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصيح أكثرها أو قارب الصحة . وقد يجد مؤلفا وضع في تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه ما يراه أصلح لكتابته . وفي الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية .^(١)
^(٢)
^(٣)

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر في موضوعه ، وأنه خال من الشواهد ، بحيث يظن أن المؤلف حكم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التي رعى الى تحديدها في كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة ، ولكان متعة لا تملها النفس ، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير .^(٤)

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبي — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق ، وهو لذلك عميق الأثر في نشر ما عُرف لعهد من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

١ - أبو الفضل بن محمد
الكتاب
الباب السادس

كتاب الرسائل والعهد

١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع ، وأعرف الوزراء لعهدده بسياسة الملك ، وبناية المجد ، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثاني" لتوسعه في العلوم العقلية والنقلية ، واطلاعه على ما دون الأفدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثاني في الكتابة ، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد : فتحدث عنه الشعالي^(١) وياقوت^(٢) وابن خلكان^(٣) بشيء من التفصيل ، وعرض له التوحيدى في غير موضع ، ولكن أجمل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم) بعد أن لازمه ليل نهار في صحبة دامت سبع سنين .

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره ، وأحفظهم للغة والغريب ، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار ، وأنفذهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والآليات .

ولا يحسبن القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب ذهن جدا ، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والتحصيل وتدير الأمور ، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث ، وإنهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) بتيمة الدهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للجاحظ على أن بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه ، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره ، وطلبه فلم يجده ، فرأى ابن العميد أن يقدم إليه نعل نفسه ؛ فعّد ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد ، فلما بلغت هذه المؤاخذة قال : كيف ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبايع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه . ولقد كنت وغيرى تهتم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... أفما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة ^(١) ؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية ، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء ، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء ، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف .

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالميكال ، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر : فقد حدثنا صاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز تعد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى تهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال : "وسمعتة — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمراراً ومع أى القوافي يحصل أجمل اطراد" ^(٢) .

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق ، وسمو بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ونلفظه ومعناه

(٢) أنظر رسالة صاحب عن المتنبي ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنني وقفت عنده طويلاً : فقد ذكر يوماً أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في نقد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوماً باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرتضى الشعر فأعجب من إirاده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاخترتها لانفرادها في بابها .^(١)

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان "قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحسب فيها ولا يتلعم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهة نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه"^(٢) .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب "فاذا حضر المعارك وباشر الحروب فانما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ، ولا يدخل في غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب" وكان الى هذه الخلال حسن التدبير الى حد الإعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعباً للفتن والدسائس وميداناً للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

(٢) راجع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور وبضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترنخي المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا إليه جياذ المدائح، وللتبني فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالري وأمتدحه بقصيدته التي أولها^(١) :

برحُ أشتياق وادكار	ولهيب أنفاس حرار
ومدامع عبراتها	ترفضُ عن نوم مطار
لله قلبي ما يحن	من الهموم وما يوارى
لقد آنقضى سكر الشبا	ب وما انقضى وصَب النمار
وكبرت عن وصل الصغا	ر وما سلوت عن الصغار
سَقياً لتغليسي إلى	باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزار
حجى إلى حجر الصرا	ة وفي حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا	نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلد	سوى معاقرة العقار
أحيا بالحن قمر	تُ بهن ألحان القمارى
وإذا استهل ابن العميد	تضاءلت ديم القطار
خرقُ صفت أخلاقه	صفو السبك من النضار
فكانما زفت موا	هبه بأمواج البحار

وكان نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
وكاننا مما تفرق راحتاه في تشار
كلف بحفظ السر تحسب صدره ليل السرار
إن الكبار من الأمور تنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضل اتبعت هواجس النفس السواري

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقة فلم يزد ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابته فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار إليه بيده وقال :

”أيها الرئيس ! اني لزمك لزوم الظل ، وذلت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق
انتظارا لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحوني فأعششتهم ،
وصدقوني فاتهمتهم ، فبأى وجه ألقاهم ، وبأى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ،
ومن ثر بعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، ويأس مستقم . فان كان للنجاح علامة فأين هي وما هي ؟
إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتكم ، وان الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم
بمناجك أعظمهم شأنا ، وأنورهم شعاعا ، وأمدتهم باعا ، وأشرفهم بقاءا “ .

فأرشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت
يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة ، وعن الإطالة مني في المَعذرة ، وإذا تواهبتنا ما دفعنا
إليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ،
وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنى إذا مطل لئيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله
ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولي نعمة فأحتملك ،
ولا صنيعة فأغضي عليك ، وان بعض ما أقررت في مسامعي ينغص مرة الحلم ، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقرىظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقرىظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأهتلك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيّم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهينا له ، ومشتريه مما كسا فيه ! فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه آلتسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأثما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف لمر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونخشى أن يكون ضاع أبداً الابدین، مع أنه كان موجوداً بالاستانة منذ ثلاثين عاماً، ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستعنا بخطة ابن خلكان، فاننا نجزم جزماً قاطعاً بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفاً من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علمية ، فانا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو ألقيت جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأقول نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون ، فان واضع المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتثور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثلثه وتجريحه حيناً من الزمان .

٧ - وكان لابن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهتم بتأديبه وأحضره كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقافته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه أشغل ليلة بما يشغل به الأحداث من عقد مجلس مسرّة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شراباً فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدس ابن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

”قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاي رقدة من عين الدهر ، واتهنزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام“^(١) .

فاستطير ابن العميد فرحاً بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، ووثقت بحريه فى طريقى ، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقيل ليسلموا له الرياسة . ”حتى لا يأنف أحد من تقبيل الأرض بين يديه والمشى قدامه إذا ركب ، مما لا يؤثره

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا ييطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) .

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان ابوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا في تغير ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب العاريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير في موكبه أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح الى الصيد . قال ابن مسكويه : « فاستشاط من ذلك وساء أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتم عليه حيلة . فدعا أكبر حجابيه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخليهم من الخلع والالطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا ، ولم يحب أن يخرق هيئة نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الانكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك الى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذهان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها منه^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والتقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا بيصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكارا كل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١) وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على السنة المتلفين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياع يقولون بإمامته في الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطون .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتعابير وتقاليده لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هي إعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه ، كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زحرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتعجب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه ، عبقرى لا يعبت برجع الحديث المعاد، وإنما يجتد بابداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن ثرة فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : ^(١) الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيراً لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في ثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابى * مثلاً على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصاً إخلاصاً قوياً يحول مشا كل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

”كأبى وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بجداث غلول وخيانة ، وتنبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يجهط أعمالك ، ويحقق كل ما يرمى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو “.

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويقفه موقف المتردد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعصيان فيقول :

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح ليليل ، وغذاء غذي ، وماء روي ، ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافتها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك !“.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ”تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، وأمس جسدك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حل بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ^(١) ؟“ .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موفقة لذلك العرف الذي سنه كتاب الدولة الأموية وأقره كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجري عن طريق الرسائل كما تجري الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد منشورة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة في الهيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه ينتفس عن قلب العاشق أضعاف ما ينتفس عن روح الصديق . وهو فى عتابه مختلف الأثجان والنوازع : فله أوقات يثور فيها ثورة جارفة فىرمى بإخاء من يعاتب فى بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك ، وبعد تضبيع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرج زكاؤه ، ولم يجر ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره ، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتلاف ، وحمطنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضدين ، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد والنجاد ، وأبعد مما بين البياض والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، أكثر مما بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار“ .^(١)

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهم القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : هيات لم فنحن نعرف ما تشير اليه أمثال هذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه فى الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول :

”ولو بقيت من الصبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجلبد لأمسكت ، فقد بما لبست الصديق على علاته ، وصفحت له عن هناته ، ولكنى مغلوب على العزاء

مأخوذ على عاداتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي بجعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لا متلاّت صدورهم ... انخ^(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب إليه في جواب خطاب:

”وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقتني من مخالّتك عتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء، ونزع من عنقي ربة الذل في إخائك، بيدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلاّم فطوري بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوّض عن النزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عني غيابات ما سدله الشك دون نظري، حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستنكراً، فوليت منها فراراً وملئت رعباً. فأذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذمّ عهدك^(٢) ! « .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود؟ إن الناقد يرى ابن العميد آقتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفاً كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشدّ اتصال، وكيف جرت على أسلّة قلبه وكأنها فيض الفطرة وجوّ الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشها من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقي حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفسة الخاشع الدليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القذاة، ولم تلفظنى من فيك، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تتجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة. وأحسب كتاب سيرد عليك فتذكره حتى تثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تُتذكر، فقد صرت عندك ممن محال النسيان صورته من صدرك، وأسمه من صحيفه حفظك. ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، وأسمّلتى لك وقد تأبّيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال. وآخر ما أقوله أن ودى وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، بخبرته في المعاودة فإنه في العود أحمد“^(١).

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة في صباه. على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فللوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء.

٦ — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبري كتاب نصيح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء. والطبري

هذا هو صديقه الذى حدّثك آنفاً عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تمّ عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلّى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقصى من قريب . وليكن كلامك جواباً تتحرّز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاه ، فان اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك ^(١) .

وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

”لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشمل أنسى ، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ؟“ ^(٢)

٧ — وما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فن برع فيه كآب القرن الرابع وصيروه سنة يحجى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنِي مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

” قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرتك على تنائيه ، لأن الشوق يملكك ، والذكري يملكك ، فنحن في الظاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح ^(١) . وهو معنى جيد آتته البيغا في إحدى رسائله الاخوانية ^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق في وصف كتبهم اليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

” وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فأرتحت لكل ما أوليت ، وأبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل الى نظائره التي وكلت بها ذكري ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فملكني العجب به ، وبهرني التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحل وحلى ، وشذور الفرائد ، في نخور الخرائد :

والعذارى غدون في الحلل البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ماعدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم ^(٣) .

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازة للكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فأمثلأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى“^(١).

هذا ولاًبن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان، وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس.

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص ب. برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفنى في القرن الرابع، توفي بسر قسطة سنة ٤١٨ هـ كما في الذخيرة وإرشاد الأريب^(٢)، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التي لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً"^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه "واسطة السلك"، وقطب ربحي الملك "وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعاً وإحساناً" وذكر صاحب المطمح أنه "غذى بالأدب، وعلا إلى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد	حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	من نظم الألفاظ نظم العقيد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدي الأسد ^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في آنفس من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين منحا في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجموا لأبن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه ابن^(١) بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله ، وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر وأبن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر^(٢) وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر^(٣) - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
كبرت من فرط الجمل ل وقلت ما هذا بشر
فأجابني لا تتكروا ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر^(٤) . ونسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر^(٥) .

٤ - تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكنفى ، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتولييه رياسة ديوان الإنشاء أثر قوى في حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبى عامر رقعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبية ، وخليقة لازمة ، قرب شبع تحت خيل النعماء ، وكم غصص فى شهى الغذاء ، ومن شرق فى نير الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكباب الجهالة ممن قلت معرفته ، وأنضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعتته ، ويميز الرق فيحسن اختياره ، وعزه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد اليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل^(١) .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوما منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من همهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منشوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكتبه ، إلى ما أقترفه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأفين لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ - وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر

في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

”ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لعبيدها تقدمهم في الثقة، وتقربهم بالموودة، وتعدهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكركم، ونسبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم... وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخطبكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من أتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليتهم، فان نقمتم حالا فترقت الشمل، أولقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا تنق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم فن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم: فتعود السيوف في أغمادها، والنبال في كوائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نغفو ونصفح“^(١).

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر الى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمين عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستقدهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهم بالتصرف في الخدمة، الى أن يقول:

”وأقسمت على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنتي لكم ذلك؟ وإنما أنتم مدبرون مسوسون، وأتباع مربوبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم يجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه في غنى عن عن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه، ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله. ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقيم الأود، ويعدل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا يني في منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يرد ألفتكم، ويجمع كلمتكم“.

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالاته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر مأسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال:

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها ونقصانها منتظران: إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الجباية، وفيهما قوام الملك وعز السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمي البرم“.

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه الشؤون.

٦ - وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد: عهد الخليفة المؤيد بالله

هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتقدمين: فتحدث عنه ابن بسام والمقرئ والقلقشندي وابن خلدون. وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم أن ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار إليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد (١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

"أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تتراح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقيم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعبنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزّة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى إذا ملكه الأشمر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهذ ركن الخلافة والأمانة ، بما أحتجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدرة ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيه " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرا به وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب في دولة العاصريين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً ، والتزلف إلى الباطل أخياناً . وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتباً ووزيراً ، والكاتب والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغي عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا الغرور .

٩ — وهذا الجانب النفى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكتّابين فى صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس ، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم النثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك آستدل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان فى الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ - أبو المغيرة به حزم

١ - في الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذى أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمها بسمة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طبق صيته الشرق والغرب ، فلنسارع إذن بتقرير ما هذان اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب ، وهما من بيت واحد وابنا عم ، ويمكن الحكم بأن أولهما أفقه وأعلم ، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يغنى في تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبخر القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في نحوله أنه اعتبط شابا "ولو طال به مداه ، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام ،^(١) يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقتة في لجج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أبى محمد كان يتوقع له هذا النحول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول :

كفانى بذكرى الناس لى وماثرى ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء في النفح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبى محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من « بنى حزم » وهى أسرة عربية أندلسية .
(٢) قال المقرئ في الحديث عن المستظهر : "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك في بطالته ، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالته ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف في حالته" نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للجهول : مات .

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكاثر
وقولى مسموع له ومصدق وقولك منبث مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لازمة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقتله المقادر يذكرنى حاميم والريح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنى سائر وإن أنا عن قوم فإنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من

رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ - والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصرفا عن الدراسات

الفقهية، حتى لنجدده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

”نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ،
تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتجبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن
السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم
بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف

والدواب .^(١)

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأذواق، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطيب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأئس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتر الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزرت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات في الدنيا شهود^(١)"

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس إليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشربة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن في الاحتماء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتباس كل الاحتباس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدغ من حجر مرتين، واذكر المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والعاقل من حملة كل بلد، ونفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكلف، إلى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور له^(١)".

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعطون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تنطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظاهرات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبيح كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا يجنى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فنراه يقول فى بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهدأ لمتن ، ولا نازلة كنيائك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لى الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتنى الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه فى رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من — وحشة الفراق ، منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حملة ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربة قومه

فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجوا لها ترحا“^(١).

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفقي المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنجر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتحتها ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ بخذب الرقعة من يده وبالغ في إيجال صفده. وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ وكما قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسواته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”خفين شمع بالظفر أنفى، واهترلليل الأمل عطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط سرا، وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألوانه، وفسا ظربانه، ونادى ليقيم من قعد، ويتنبه من رقد، انما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت في عمياء من ظفري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كآبها القطا، فياله من قادر ما لأم قدرته، وذابح ما أحد شفرته“.

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء . وله في الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة ” قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا ، والى الكريم أتنا “ وربما كان أقبح أهاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم ، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه ” معنى كصدا الأسنان ، ولفظ كنفحات الأكفان ، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس ، وأعلام لا وضع فيها لصبح متنفس ، ورطانة تمجها الأسماع ، وتخبوها الطباع ، فوقفت متبلدا ، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا ، فقلنا أيها الانسان ، لست بالنبي سليمان ، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل ، وسرار النمل ؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت ؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت ؟ ألم تجل في ميدانه فسبقت ؟ ألم تسرفى ظلماته فأشرقت ؟ هل أحسست بنكول جنان ، أو قصور لسان ، فيما نظمت كالعقود ، على ترائب الفتاة الرود ، ونثرت كالنجوم ، في صفحة الليل البهيم ، فقلت : بلى ! قالتا : فأعرض عن رطانة الزط ، وصفير البط ، ولا تعج على طلل بائد ، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد ! فقلت : لقد أسرفتما طاعنين ، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان ، ولعالم نوع الإحسان . إلا أنه ربما كذب العنوان . فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه ! كتاب بنى على الظلم العبقري ، والبهتان الجلى ، ومكابرة العيان ، ومدافعة البرهان ، قد طمس الله أنواره ، وأظهر عواره ، بجاء كالفلاة القوراء : لا ماء ولا شجر ، والليله الظلماء : لا نجم ولا قمر ^(١) .

وهذا التهاجى بين أبناء العلم لا غرابة فيه ، فان الأدب العربى ينخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء : لأن ثائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد ، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما نحمد من جذوات النفوس والعقول . ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره ، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاءه لغيره عن المزاح الثقيل ، كقوله فى التهم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى فتح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين ، فليرجع اليهما

ببعض المتطيين : ” وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث انتهى من تطيبه ، وكيف ظروفه وخزائنه ، ولعوقاته ومعاجنه ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على الماء ، ويبيده من الأدوية ، وأهد لي ما ينقه من المقال ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام ، بشريعة الاسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الخصاص ^(١) “ .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدي بالنثر كل ما يؤدي بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في ثراي المغيرة نفحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت مسرعة الى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، والى القارئ رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

” فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر أنست في ييا به ، الى عواء ذئابه ، لا أمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الحارب المنتهب ، والشعار عند النائبة ألقاها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول أبي الطيب :

فان أسلم فما أبقى ، ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي الى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني الى محط الرجال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذي لا تحصى فرائده ، والغيث الذي لا يجذب رائده ، حتى أداني الى الحضرة العلياء ، والمحلة السماء ، فكبرت إكبارا لما صرت اليه ، وهملت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أني في الحرم الذي لا يضار جناحه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصيب ، وتمكنت من الرشاء والقليل ^(١) “ .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل ، والقليل البئر .

ولم يقف تأثيره ببديع الزمان عند محاكاة في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمداني رسالة شائعة في إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاعرين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاوئش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا، ويرقع خلق عهدنا، ويطلب ما أفاتته جريرتك الينا، وذهبت به جنائتك علينا، أيام غصنك ناضر، وبدرك زاهر، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع، ونفرة تقيم مناد الضلوع، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدرونا، ويستريح اليها مهجورنا، لقينا دونك أمنع سدّ، وأقبح صدّ، وأقبح زند، وأبرج ردّ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وأنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاك كسوفنا، وقلبت ديباجتك صوفنا، وأعادت نهارك ليلا، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك، فصار عرسك مآتما، وعاد وصلك محزما :

وبت مداماً تسر الزيفا فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصرت حجازاً جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تتسلل الينا لواذا، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عن الولاية، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا، وتقتلنا بسيوف ألقاظك عشقا، وتميس غصننا، فتثير حزنا، وتطلع شمسا، وتغيب نقسا، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ، ووجد قد كفّ . وعزاء قد أبدّ، وصبر قد غار وأنجد، وننظر منك الى روض قد صقح، وسار قد أصبح، وأعجم قد أفصح، ومبهم قد صرح ... الخ“^(١)

١١ - ثرأبي المغيرة في جملة متين رصين، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل، ودمامة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممّص ، نكتفي بالإشارة إليه، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص ، ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغيا

١ - البغيا هو عبد الواحد بن نصر الخزومي . وإنما لقب بالبغيا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ في نصيبين و اتصل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ قال الثعالبي : ” وأخر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متناول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجران سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع ” .

٢ - كان البغيا من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته ، لأن المؤلفين يهتمون في الأغلب بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المشاعين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل إلينا من شعر البيغا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ -- وإنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقة والإملاق، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي نقضى به تعليل إصفاء شعره الوجداني، فقد كان شعر البيغا يُغنى به وكان من مُتَع السامعين في الشام والعراق، ولننظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه	ونرجسه مما دهمى حسنه ورد
أراقت دمي ظالما محاسن وجهه	فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخلد حتى كأنما	سقى عينه من ماء توريده الخلد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي	لقد طال ما استشفيت بها مقل رمد ^(١)

ولننظر كذلك كيف يقول في محبوب فصده مبضع الطيب :

بأبي الغائب الذى لم يرغب عني	فأشكو إليه هم المغيب
باشمته كف الطيب فلونا	ت الأمانى قبلت كف الطيب
فعلت في ذراعه ظبة المبه	ضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفوني	عصفرت به بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الده	ر لأمسى عطرى وأصبح طيبى ^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإننا لتأمل في شعره فنجدته يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن الورد أطرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وآجل شمس العقار في يد بدر الـ	حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وأتمز الـ	كان من قبل عائق الإمكان
في كؤوس كأنها زهر الخشـ	يخاش ضمت شقائق النعمان
وأخذتها عند البزال بألفـ	ظ المشاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زفـ	ت بعزف النايات والعيـ ^(١) دان

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصهباء ودعوته الى أخذها كما تختدع العروس

بالنأى والعود .

٤ — ومما يؤكد أن أطماع البغيا من الاتصال بالملك كانت طفيفة لا تعدو مطالب

الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنـ	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على السير فما العـ	ة في عتبنا على الزمن ^(٢)

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبته الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتني
فلم أر مذ عرفت محل نفسي	بلوغ مني يساوى محل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجسد فيما	سعيت له لأستغنى وأغني
فان أحرم فلم أحرم لعجز	وان أبلغ فنفسى بلغني ^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آيات وسدت مشارع
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص الببغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلص الببغا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف

والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبي اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد

والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته

فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج آسلم وأبق وأنعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غاليا فأرخصته والبيع غال ومرخص
وأنستنى في محبسى بزيارة شفت كمدا من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كحسوة طائر فواقا كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذرك القفص
كذا الكرز الماح^(٢) ينبج بنفسه اذا عاين الأشراك تنصب للقفص
فوشيت ياقس الطيور فصاحة اذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٣)
وقد أجابه الببغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالببغاء قدما ملقبا فكم لقب بالجور لا العدل مختص
وبعد فما أخشى تقنص جارح وقلبك لى وكرورأيك لى قفص^(٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والببغا

من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "الببغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) (٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة .

(٤) ص ١٨٨ ج ١ بئمة .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ بئمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاورة طريفة في وصف البغياء فهو مثلاً يعتذر عن إهماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفاً من تذرك القفص

وللنظر كيف يقول في وصف البغياء :

أنعتها صبيحةً مليحة	ناطقَةً باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيَّار واللسانُ	يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكَّاء إلا أنها سمِعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقنت العضيَّة	فتغدى بديهةً سفيهة
زارتك من بلادها البعيدة	وأستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قراه الجوز والأرزُ	والضيف في أبياتنا يعز
تراه في مقارها الخلق	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلتها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك النى قلبي بها مشغوفُ	كنتيت عنها وأسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغياء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغياء :

ترهى بدو^(١)اج من الزمرد ومقالة كسبج في عسجد
وحسن منقار أشم^(٢) قان كأنما صيغ من المرجان
صيرها انفرادها في الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لجد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغدا لاتشرب الماء ولا تخشى الصدى
ذات شعى^(٢) تحسبه ياقوتا لاترضى غير الأرز قوتا
كأنما الحبة في منقارها حباية تطفو على عقارها
إقدامها بياسها الشديد أسكنها في قفص الحديد^(٣)

٧ — وهذا الوصف وصف البغاء الذى أجاد فيه الشاعر ان أتاحته لنا لثغة أبي الفرج
التي أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك المحاسن لثغة وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدم خاليا لعير اذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسو^(٤)غا

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى
وان كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيدها أن شعر أبي الفرج تغلب عليه التزعة الوصفية وذلك
يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى
والمتبنى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعمه في طبيعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق
الحياة في قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم في الروع كأس مدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب الخفاف الذى يلبس (قاموس) .
المشعان ، والشعوانة الجملة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة .
(٢) الشمى كهدى خصل الشعر (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

(١) متهاجرين على الدنو كأنما أنفت رؤوسهمو عن الأجسام

وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :

إذا آستلَّك الجانون أغمذك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم

ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عتوه - إذا ما جنى - الإنصاف أدبه الظلم

إذا العرب لم تجز آصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياستها العجم

اعدها الى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أباؤك الشم

(٢) فان ضاق عنها العذر عندك في الذي جتته فما ضاق التفضل والحلم

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنخت بها وقرن الشمس لم يغيب

نخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب

وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب

وجاش عباب واديها بمنهل ومنسكب

ويا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب

فيا عجبا لعاصرها وما يفنى به عجيبي

(٣) وكيف يعيش وهو يخوض في بحر من اللهب

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب

تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب

(٤) تماشي بفتيان كأن جسومهم لحقتها فوق السروج قلوب

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ - نثر أبي الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحيانا . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية ، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تترأى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء ، بدون أن يعنى كثيرا بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماء العقول .

٢ - وأول ما يطالعنا من نثر البغيا هو رسائله الإخوانية ، كما كان يعبر القدماء ، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه الى أصحابه والآفه وإخدايه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب ، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان الى القطر ، والسارى الى غرة الفجر“^(١) .

أو يقول :

”شوق^(١) إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“ .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق ، ويبرد أوار الفراق ، بالتخيّل المثل لمن نأت محلته ،

والتفكر المصور لمن بعدت شقته ، لألّبت أنفاسه ، وأسعرت حواسه ، وهَمّت دموعه ،

وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح ، عند تباين الأشياء“^(١) .

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٣

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحبين :

”إن تزايلت الأشباح ، فقد توصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تَمِضُ الفرقة وتؤلُم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرعى“ .^(١)

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالي عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والود ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البغيا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيده لما عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته في التهنتة بمولودة : فهي تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهني ، فيقول :

”لو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحدة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يحهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد أتصل بي خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرفت مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهم أقرب الى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهم بالترتيب فقال جلّ من قائل ﴿يَهَبْ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءًا وَيَهَبْ لِمَن يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أخرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف أستحدثن ، من طرق الأصهار ، والاتصال بالأخيار ، والمتمس من الذكر نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكر الأثني أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعا ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويجدد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، ان شاء الله تعالى^(١) .

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع ، فقد عقد له الحصري فصلاً في زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلاً للأثني على الذكر قول بعض الكتاب :

”الدنيا مؤنثة والرجال يخدومونها ، والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ، والنفوس مؤنثة وهي قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم نتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها^(٢) ينعم المرسلون“ .

ويتصل بهذا المعنى ما اقترحه سيف الدولة على البيغان الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا . وقد آتفق لعمر بن مسعدة أن سأل سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه ! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء . أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهراً أشد الظهور ، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهجى عمله ، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يدخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينفقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

٥ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البغيا دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، وبالدوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب دُرُّ الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميّط ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصرّيفه ، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى^(٢) .“

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور النعمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوى سواء فيما تُصدره الأقلام عنها ، وتستمده بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الأفهام ، وشرب الأقلام ... ولا معدّل بي عن استمache خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ دواتي من نحول العطلة ، وتزهر قلبي عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان والخلة ، فعلت إن شاء الله تعالى^(٢) .“

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه المعوزون كالطعام

وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أدواقهم وإن كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة كيف وقعت ، ولا مدادا كيف كان ، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة ، ويستهدى مدادا (جيذا) ينزه قلبه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك ^(١) .

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة ، وفقا للظروف . من ذلك رسائله في التهنة بالزواج ^(٢) والتهنة بولاية عمل ^(٣) والتهنة بالقدوم من سفر ^(٤) والتهنة بالمواسم والاعياد .

وهذا كله طبعى ومقبول ، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهنة بالصرف عن الولاية ، فقد نفهم أن يهنا المرء بولاية عمل ، ولكن لا نفهم كيف يهنا بالعزل ، وما ننكر أن يقع ذلك ، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج ، وإن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتال البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى ! — من رتب الرياسة والنبيل ، كان معظما في حالتي الولاية والعزل . لا يقدر في قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال ، إذ كان استيحاشها للغائت من بركات نظره ، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“ ^(٥) .

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما اختصك به من كمال الفضل ، ومأثور النبيل ، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك ، وتحوطه (١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام)

ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهناً مسروراً، كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً^(١) .

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق البغيا : فقد كتب عدة رسائل في التهئة بالشفاء من المرض، يدور أكرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

” ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالي الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذي شرف طبعي بمناسبتك، وجمل خلقي بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصني به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقبالك^(٢) .

ولكننا نبتسم حين نراه يهني صديقاً بالمرض فيقول :

” في ذكر الله سيدي بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظاً له من سنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام، وتنبيه العظام، غير الصفوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهناك الله الفوز بأجر ما يعانیه، وحمل عنه بالطافه ثقل ما هو فيه^(٣) .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التي تحتاج الى التلطف في المواساة، وإخراجها مخرج التهئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للبغيا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة في موضوع

واحد كقوله في التعزية :

” اتصل بي خبر المصيبة : فحدد الحسرة ، وسكب العبرة، وأضرم الحرقه، وضاعف اللوعة^(٤)“

فتراه يعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

”اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة“^(١).

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الافتنان في تلوينها أحيانا .
على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .
وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تعزية لصديق :

”أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته“^(٢).

وقوله :

”وحرس يقينك من أعراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك“^(٣).

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمنزل الجديد، وإن كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل البيغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندي غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بحاسن شعره“

لهذا نرجح أن يكون القلقشندي اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة^(٦) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب القيمة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

”الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق
المجد اذا افتخر، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وزمى الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخل أصلحه ، وهدي أعاده ، وضلال أباده .

فلا آتزع الله الهدى عز بأسه ولا آتزع الله الوغى عز نصره

وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعى سوام الدين توفير شكره

فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البغيا في رسائله لا يقاس الى

فضله وبراعته في نثره المرسل الذى ديج به قصصه الغرامية ، وقد حفظ له منها شاهد يعز

على من رامه من أندى الكتاب قلما وأسماءهم بيانا^(١) .

(١) تجد هذا الشاهد في باب « الأخبار والأفاصيص » بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو آبن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئاً كثيراً^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شاباً ذكياً أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستقبلت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوماً بمقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنًا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٣) .

٢ - وأول ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقى به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأديباء ، وفي بغية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بغية الوعاة أنه كان في الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهما وتقول له تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهما لثلاث نسائه . (٣) ص ٣٦ ج ٣ . يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكمه في أمواله ، وكان لقبه الصاحب في حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقر الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات في ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطي في بغية الوعاة^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطي أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره اتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدث وقعد للإملاء ، وأزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستعلمين^(٢) . أرسل إليه في السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعائة جمل^(٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً واسكن كرمه كان نخاً ينصب لشرار الشعاء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(٣) ص ٣٥ ج ٣ من قيمة الدهر .

(٢) بغية الوعاة ١٩٦

(١) ص ١٩٦

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم ويدعى العقل ، وهما في دعواهما كاذبان^(١) .

وكان صاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق .

قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا ، أما كان لك بالجماعة أسوة !^(٢)

وورد إلى صاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندهم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمره أحد جلسائه ليقول رسائل صاحب فلم يفطن ، وراه صاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس !^(٣)

وكان صاحب يحب الفخر وانتحال الفضائل التي ربما قصر عنها ، كذلك يقول ياقوت ،
ويذكر في تأييد ذلك أن صاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتثاقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ صاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه !
نفجل أبو السائب واعتذر إليه . والقصة وقعت لغير صاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٤) .

وسمع صاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراضى إلا أن أملك العراق وأنصتد^(٥)
ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل صاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .

(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبسوثة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدي ، والتوحيدي غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدي عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذي وضعه للخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقيح يؤثر عنهما أثرًا ، لكن لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقة ، والجهل من العالم منكرا ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا في جميع من كتب للجبل والدليم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد »^(١) .

٥ — وما اختلقه التوحيدي على ابن عباد يدل على أمرين : ^(١) الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .^(٢)

واستطاع التوحيدي وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا أذانا تستطيب ما يقال فيه من الاتم والبهتان . الأمر الثاني تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففي ما كتبه التوحيدي شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدي في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى الشاء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه يلبق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني حتى

فارقني لي، وزايلني عقلي، وانشرحت مفاصلي، وتخاذلت عرى قلبي، وذهل ذهني، وحيل بيني وبين رشدي . فيتהל وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عجباً وجهلاً . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه ^(١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن يخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبيان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد في مثل هذا الضعف الخلق ، فان الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويعملون خبثاً أو جهلاً على التحدث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقاً هو هذه الصورة التي وضعها التوحيدى للتملق السخيف المردول الذي يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التي وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت في إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه طويلاً حتى آحتد وكاد يتقد ، فأحتال اليهودى في مخائنته وقال :

أيها الصاحب ! لم نتقد وتستشيط وتلهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يخل ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حمية وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أساري وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شيئا بالقرآن^(١) .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى ، وليس يضيرها أن تكون مختلقة . فقد تكون صور الواقع أفضع من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يخضع ، وقد يخضع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يشنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبت لهم من الحقد والضغينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُندية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم ، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ — وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصبهان لأبن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لى بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح ! “^(٢) .

(١) ص ٢٩٧ تصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ باقوت .

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتياب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا
 كنا نصلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شىء فى الاسلام ، وانما أراد
 الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شىء ثقیل ،
 هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطلوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح فى ثلبه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليه ، يقوم الثعالبي من جانب آخر
 فيقول فيه :

” ليست تحضرنى عبارة أرضاها للأفصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلال شأنه
 فى الجود والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفانر ، لأن همة قولى تخفض
 عن بلوع أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومسايعه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج
 فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ،
 وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمة فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل
 يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارى فى البلاغة ، وواسطة
 عقد الدهر فى الساحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعتد فى السحر ،
 ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

”قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره، وأنبا عنه من أحوال جسمه، فدلتنى جملة على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطفى ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص في آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها، والبلدة التي وردھا، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طول هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“^(١).

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذه وقد ظهر عليه الجدرى :

”هذه العلة وان كانت موجعة، وفي رأى العين فظيعة شنة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد الممرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قرح نهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بدياجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشمر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ“^(٢).

وللخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه

الجرب، نقتبس منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة . . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي .

”... الحرب حكمة مادتها بيوسة وحرارة ووقود وألتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعام^١ وشراب، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه البيوسة والحرارة. ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطاً وراءه النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داوئما ظاهرا فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة. فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسّمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية،... وهذه علة تكسب صاحبها خراية وحياة، وثورته نجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون،... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هناتهما، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان. قال الشاعر :

(١) أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والحرب

١٢ - ولو أن تلك الرسائل أرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبتين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن متناول الكتاب. والصلة بين الصاحب والخوازمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وإن كانت ضعفت بعد ذلك ،
حتى كتب الخوارزمي إلى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتي فيها أسحارا ،
كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وإن بعد صبري على فراقه لجلد على وقع
(١)
سهام الهجر ، واسع المجال في ميدان الصبر...” الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول ، وإنما مضى يغرب في الصنعة
شعرا ونثراً ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتاً خالية من الألف ، وهي أكثر الحروف دخولا
في المنظوم والمشتور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من
حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معرأة من الواو ، فأنبى أبو الحسين
الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب في أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الجباب لما بدا فالدمع ساكب

أمدامعى منهلة هاتيك أم غزر السحاب

(٢)
نثرت لآلى أدمع لم يفترعها كف ثاقب

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمداني الذي صنع هذه القصيدة هو
(٣)
الهمداني صاحب المقامات . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين .

والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذي تجنب حرف
الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا
لذلك ، إذ كان ألتغ ، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .

(٣) ترجمة المسبوروش الفرنسية التي تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة الترام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ - قلت إن صاحب كان شديد الرغبة فى استعباد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التى هوجم بها المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض صاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبي، فأجاب صاحب : أنه بعيد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وأدعى أن شعر المتنبي تُمتر النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال صاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى، ولا تتبع الزلات من طريقي . وقد قيل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وإنما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يروى، ويخير قبل أن يخبر، فأسمع وأنصت، وأعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفوايقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فاذا حكموا رأيت بهائم مرسنة، وانعاما^(١) مجفلة .

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير .
فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن نخبرنا أنه أعد للنقد عدته : بجالس الشعراء ، وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أيدى الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أى القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مرابا لا يخشى انقطاعه والتياثنه عليه" .^(١)

ونحن نستعيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شهيد الأندلسى تأثر بهذا رأى حين قال : "إن للحروف أنسابا وقربات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصيحة" .^(٢)

١٦ - وليس يهمننا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله فى نقد قصيدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

"ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

* رواق العز فوقك مسبطر *

ولعل لفظة الأسبطار في مرآة النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة
يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض أبلعي ماءك» من القرآن و «أصدع
بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده في آتتهك الستر .

ولما أبدع في هذه المرثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة . فقلت : صدقت ؟ ولكنها استعارة حداد

في عرس !

ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريكات أعمل دقائق فكره ،

واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشتت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأبغ من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

فالمصيبة في الرأى أعظم منها في المرئى ^(١) .

١٧ — وخلاصة القول أن صاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره ، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقي من رسائله جزء في المكتبة الأهلية بباريس ^(٢) . وفي زهر الآداب ونهاية الأرب

(٢) في دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

(١) ص ١٢

ويثيمة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتمز السجع أويكاد ، وفي أكثر الأحيان
 * يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض
 الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردى . ومهما أحتال خصومه في الخط من
 عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه
 ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدين كانت تمضى طعمة الفقر والخمول لولم يمسها يمنه
 وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين ^(١) .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارى كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى
 من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدّة أجيال. والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه. وكذلك كان الخوارزمي فهو في ثره عقل قوى يمتاز من العقول التي سبقته أو عاصرتة. وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا. فهو دون ابن العميد في سمو الغرض، ودون بديع الزمان في حلاوة التعبير، ودون التوحيدى في وفرة المحصول، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال - والنبوغ الأدبي هو ذلك: فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ. ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضه النмир. وقد كان الخوارزمي شاعرا، ولكن ديوانه ضاع. ولم يبق من شعره إلا القليل، فمن الصعب أن نعطي القارىء فكرة عن حياته الشعرية، وإن كان من السهل أن نجزم بأن نموله في الشعر كان أمرا مقضيا، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار، منهم الشريف الرضى والمتنبى والمعرى وأبو فراس. على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره، وأن شعره ليس بجيد وإن لم يكن برديء، من ذلك قوله في بعض الأصدقاء:

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا مقيا وإن أعسرت زرت لما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضياء أقاما

وقوله فيمن يطلب الصهباء وهو بخيل:

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض أملاؤهما ففرغ الكيس حتى تملأ الكاسا^(١)

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي ، أما موته ففيه خلاف ، فمن قائل انه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفي سنة ٣٩٣^(١) وسمى الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات . وكان الخوارزمي معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليدكرون انه قصد صاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابيه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر: ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٢) .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت محتاج الى نقد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلوا وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان في هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزباني جمع أشعار النساء في كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث في دار الكتب المصرية بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفي هذا دليل على أن الرواة شغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا ينكر أن حظ المرأة في الشعر العربي ضئيل ، حتى ليكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما إلى منافسة الرجل في الشعر ، وها نحن أولاء نعيش في عصر من عصور النهضة في اللغة وفي الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، وكم عددهن في هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ - أما حياته فأظهر ما فيها أحداثا : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والغض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه إلى كشف عيوب المتنبي ومساوئه . ولكنه اندفع في ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذي كان يحقد على المتنبي لترفعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمي للمتنبي قوله في الرسالة التي كتبها إلى الحاجب أبي إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

”ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقض حكمته ، وتفاوت طريقي فعلته ، حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال في كافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضايق نفسه في اختبار المتاع ، ويسامحها في اختيار

المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة، على عرض من لا يساوى بكرة، ويزن كريمة من كرائم شعره، الى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع في حجر فأرلدخله، ولو أتاه الدرهم من آست كلب لما غسله، فلا جرم أن الناس كما استحسنوا قوله، استقبحو فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يحرج شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته. وكم من حرفضه ثم ثلبه؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها^(١).

٥ — وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يعجب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال، وقد جرّه ذلك الى التغني بخلقه هو، واحتفاظه بالود، ووفائه بالعهد، فقال "ولكن في قيص أبي بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع، واذا طلق لم يراجع، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، واذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، واذا طيب فكيه بالمدح لكريم، لم يلطخهما بمدح للئيم، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرجن لإلاليه، ويحتلين غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجذبها الى شق النسوان^(٢).

فالمتنبي مؤنث الخلق لأنه غادر، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفي! هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنبل، وحكم على المتنبي بالخساسة، لأن المتنبي يتغير ويتبدل، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول.

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بغيه الأثيم : فساءت الصلات بينه وبين ابن عباد فتحول عنه وشغل بذمه وقده بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه، وأستطاع أن يرمى بمدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لا تتحدث ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى أنجمل الديما
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخسلا ولا كرمًا

وَجَرى في الناس ذِكْر الخوارزمي بالتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شبيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته إذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء

وأنشد صاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أُمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالحص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء ، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثانى فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشؤوم قضى عليه ، ويرجع السرفيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين فى إسقاطه ^(١) والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال فى غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير فى ذلك الحين ، وهو غلوهم فى التشيع فأنطلق يبكى القتل من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه فى نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور ”وأنخذل أنخذالا شديدا وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره“ كما قال ياقوت ^(٢) .

وقد سبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكاتبين مجرى العتاب ، وهى رسائل جيده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعدّ الحملة ويتأهب للززال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم فى بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن ”أما قبحه فلأنه عاتب بريئا ، ونسب الى الإساءة

من لم يكن مسيئاً ، وأما حسنه فلا لفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدينيا
ظاهرها يغر ، وباطنها يضر ، وكالمرعى على دمن الثرى ، منظره بهي ، ومخبره وبى " وربما
أنشده :

يابديع القول حاشا لك من هجو بديع
وبحسن القول عوذ تك من سوء الصنيع
لا يعب بعضك بعضا كن مليحاً فى الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن
ثياب بره اذا قبلها ضافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعنته وتعصبه ، ولم يخرق الثياب بتجنبه
وتسحبه » وهناك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفون ان كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ،
ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادتين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل باعباء الحياة
وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تدل لها نفسه ويخرج بها كبرياءه ، ألسنا نراه
يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا فى بره ، فيكون هذا عند ظنه ،
فيكتب اليه رسالة تجئ فيها هذه الفقرة التي تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

”ومن أنقذ انسانا من الفقر ، وأنقذه من محال الدهر ، وفكك من إيسار العسر ، فقد
أعتقه من الرق الأكبر ، ونجاه من الموت الأحمر ، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان ،
والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان^(١)“ .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل؛ فكتب الخوارزمي كتاباً

جاء فيه :

”وأظن أني لو لقيتك عيلاً لأنصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فاني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبو عني سهم الدهر اذا رماني ، وينفذ في اذا رمى اخواني ، فأقرب سهامه مني ، أبعد سهامه عني ، كما أن أبعدا عني ، أقربها مني“^(١) وهذه الفقرة تمثله جلداً صبوراً ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور باعباء الحياة أنطقه بالحكمة في تعليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدثنا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير ، اذ كانت المآسى الانسانية كأساً تدور على الجميع . ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

”ورد علىّ خبر وفاة فلان فدارت بي الأرض حيرة ، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة ، وملاً الوله والوهل قلبي وسواساً وفكرة ، وتذكرت ما كان يجعني واياه من سكرى الشباب والشراب ، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها ، فبكيت عليه بكاء لى نصفه ، وحرنت له حزناً لنفسى شطره“^(٢) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التي كان يعانها الخوارزمي بين احداث زمانه جعلته يتشام من صحبة من يقاسون إدبار الأيام ، ويتفاعل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى ”أن من تعلق بذيل المستقبل أقبل“^(٣) ويرى كذلك أن ”أيام المحنة موج من تطاها له تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته“^(٤) وعنده أن ”الاقبال يستر العيوب ، والدولة تجعل البعيد قريباً ، والحد يرى المخطئ مصيباً ، والمجدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينه“ وكلمتا الإقبال والإدبار

يحدّهما القارئ في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية . وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكّم من عقل ضاع ، وكّم من عبقرية أُنحِدت وأُفِلت ، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهم بالأقول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله في سياسة النفس : ” ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية ، وانخلع عن ربة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لأن يعيش لياكل ، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع ما كله ، وقتل أنامله ، وأن يجنى ببعضه على كله ، ويعين فرعه على أصله ، فكّم من لقمة أتلفت نفس حر ، وكّم من أكلة منعت أكالات دهر ، وكّم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكّم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكّم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسدا كانت تنبؤ عنه السيوف البواتر ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، ونحرت بخرابه بيوت بل أمصار ... والمشتهى غاش لنفسه ، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يمتاز عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه “^(١) .

٩ — ولنتنقل بعد أن ألمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اعادة الانشاء ، ولندكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

”واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جاد ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهافت قولى اذ لا ينتسك وجاملتك ، والى اصابتى الغرض وحرّى الفصل اذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق معانٍ ومأخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مغضوب عليه “^(٢) .

فسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع الى الصدق، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفنّه مفتوناً به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صدق، وفي الصدق وحده سر العبقريه والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلفين من الكتاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم، وباعوا ضمائرهم ونفوسهم، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردّد أصوات الأمرين والناهين من أر باب الملك وأصحاب الجاه. وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وانما يقاس نبوغ الكاتب وتوزن عبقريّة الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تجلّ من عناصر القوة الخالدة التي تجعل ربها أبا وأخاً وأستاذاً وزميلاً لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان. فالصدق هو الهادي الأمين الذي يسير بنا في اودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيف ولا نقاسي ضر الضلال، وحين نصدق ونفني في الصدق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبعوثه في ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعزف عن أغانيها أحد من الموقّنين، وانما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا في الإيمان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور. فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهداه، والكاتب الانساني هو الذي يصدق ويفني في صدقه حين يواجه ما في الانسانية من مشا كل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بما في الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ مما فيها من شخ ولؤم وجور وطغيان.

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتغنى إلا به، ولا يتحدّث إلا عنه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقاً، يتغنى بالخير حين يؤخذ به، ويتغنى بالشر حين يفتن به، وفي صدقه السر كل السر في فتح ما أغلق من

سرائر النفوس وضمائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا خفيرا ، وإن شرا فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمضيره الى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن إلى الاعتماد على سواه بخديبه أن يئس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى له بركة بقاء .

١٠ — ونعود فنذكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحيانا ، يسمو ويخلق حين يصدق ، ويهوى ويسف حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو ثره الضعيف ثقيلاً ممجوجاً كالمرأة الفانية حين تنزين وتختال . ومن ذا الذي يسيع قوله في وصف رجل :

”إذا ناظره العربي صار أعجميا ، وإذا ناظره الأعجمي صار عربيا ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق فخره ، فهو رفيق الجود وخليه ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيلة ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لابل حضرة الأقوال والأفعال ، لابل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات^(١)“ .

وأثقل من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

”أذكره وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، واستقامته أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة^(٢)“ .

والحرص على السجع في مثل قوله : ”لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الاحد^(٣)“ فإن كلمتي السبت والأحد لم تقعا هنا إلا ابتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من الترام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتمل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .

١١ - والحوارمى حين يحيد يسمو سمو عظيمًا، ويقدم من صور الجحد والهزل

ما يتمتع النفس ويضطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعب .
وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يفترق
شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد آتفق للحوارمى أن شكا وروده إلى بعض النواحي بعد
ما قاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو فى الدنيا . قال "وأول
ما صر بى سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرة الحمار، على أن الحمار أيضا حمار، إلا أنه
قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأنى كنت بين حمارين، إلا أنى كنت بين جنسين" (١).

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره، ومتنفس خاطره، ومجال بصره، ومدار
فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام فى حاقها وجه صبيح، وتقلب
فى أطرافها قد ملج . إلى هنا يمضى الكلام فتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن
أوسكار ويلد، ولكن الحوارمى يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك، ثم يقول "وإنما أذكر بقية
طولها باع، وعرضها ذراع، أعنى باع البقة، وذراع الذرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء
الذى لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها، تسقى بالمسقط صباحا،
وتنكت بالخلال مساء، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة
وأربعين" (٢).

١٢ - ولكن أمثال هذه الفكاهات تمتاز كالطيف فيما ترك ذلك المكاتب المجيد، فتلك

فقرات تصيدناها من رسائله، وهيات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذى قضى حياته يتعثر
بين أحداث البؤس والهوان، فالفكاهة حين تقع تحت سن قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ،
وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سر الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا فى كلام أبى الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ

أصغر من عنفة بقة، وأقصر من أنملة نملة » (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالى : كتابك

أقصر من نبقة، وأصغر من بقة، وأخون من ذرة، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة) . (٣) ص ١١

نستقي أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدم لقراءتنا صوراً من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجميل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يغفلوا عنق ذلك الرجل بشيء من المال يقدمونه إليه ثمناً لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصورها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثراً في كبت ذلك الروح وحبسها في حدود الجحد والرزانة ، وحرمانه من نسمات اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جد الخوارزمي وجدناه جداً رصيناً ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأقول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما ينال اللثام ، وإنه ليدكر أن "البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يغار على الأدب الكريم ، من المتأدب اللئيم ، وينشد في ذلك :
وأرثي له من موقف السوء عنده كمرثيتي للطرف والعلاج راصبه

ويودّ أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كتب الدفتر بقنطار ، فلا يتأدب إلا شجاع كمي ، ولا يحرز الدفاتر (١)
إلا جواد سخى .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعاني آلاماً كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقه من بعض الطبائع الدنيئة التي يورثها العلم والأدب ألواناً من العظمة البغيضة والكبرياء الممقوت ،

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليم لهم ما ينتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسمائهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى رُوعه أنه مغلوب . فله

فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

”طلب الشيخ نسخة من رسائلى فرحبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من ماء أجفانى ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البررة، ليكتبوه بيد العصمة، ويخلدوه فى بيت الحكمة، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولسانى أدق حساب ، وطالبت شيطانى بتهذيبه وتنقيحه أشد طلاب ، ولقلت لحاطرى دقق طرزك ، وجود برك ، فإن المبتاع كريم ، والثن عظيم ، وقد قيل : الراوية أحد الشعيرين ، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين“^(١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو به وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : ”إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شرها لخيار“^(٢) . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى انتهينا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

ووزن فضله ؛ وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلبه وهي حالة جعلتنا نرى
المتنبى في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — وللخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضا بشعا رهيبا ،
مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة ، وسكارى سكر الثروة ، ومتكئون على فراش العدل
والنصفة ، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم ، ويسير
في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار ، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار ، حتى آفتقر
الأغنياء ، وأنكشف الفقراء ، وحتى ترك الدهقان ضيعته ، ومحمد صاحب الغلة غلته ، وحتى
نشف الزرع والضرع ، وأهلك الحرث والنسل ، وحتى أحرب البلاد ، بل أحرب العباد ،
وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا ، وحب الفقر إلى أهل الغنى ، وحتى لقب بالجراد ، وكفى
أبا الفساد ، وحتى صار الدرهم في أيامه ، أقل من الصدق في كلامه ، وصار الأمن في أعماله
أعز من السداد في أفعاله . فليتة إذ أوحش الرجال ، حصّل المال ، وليته إذ ضيع المال ،
أرضى الرجال ، وليكنه حرم الأئمين ، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب في الغنم بالقياس
إليه إلا من المصلحين ، ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين ، ولا الجحاح بن
يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين ، ولا يزدجرد الأئيم في أهل فارس بالإضافة
إليه إلا من النبيين والصدّيقين ، ولا فرعون في بنى إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة
المقرّبين^(١) .“

١٦ — وفي الخوارزمي يظهر جيدا في هذه الصورة ، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن
وحال الخوف ، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة العنف ، فأشار إلى أنهم كانوا
قبل ورود ذلك الوالى في سكر الغنى وغفوة الأمان ، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين ،
فلما قدم ذلك الوالى أذلهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفي قول الخوارزمي ”حتى افتقر

الأغنياء، وانكشف الفقراء“ دقة بالغة، فإن انكشف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضرراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنى - افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهناك البؤس الجائر، والهول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم ”وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود“^(١). وفي مثل هذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك العصر يبالغون في بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله ”حتى صار الدرهم في أيامه أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أنعاله“ من العبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر الهجاء. وذكر الحجاج ويزجرد وفرعون في الحديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على السنة الأقدمين.

١٧ - ولخوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكننا نجد فيها

كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله في خطاب تلميذه :
 ”كتابي هذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أشرت، لما أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولا أقمنا جميعا أورشلنا معا. وإنى لأظلم الفراق إذا شكوته، وأتعنف الدهر إذا هجوته، وبیدی ضربانی، ومن سهمی رمیانی. فأنا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص البين وكربه“^(٢)
 والفقرتان الأخيرتان تكرار ثقيل. والمعنى كله مأخوذ من أبيات حورها الخوارزمي .
 وهي في الأصل الذي أثبتته القالى :

تطوى المراحل عن حبيبك دأباً	وتظلل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى	تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي.

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان .

ألا أقمت ولو على جمر الغضا قلبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية
البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند^(١)، بل من النقد،
وأعقب من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد
البعد، ومن الوصل في أثر الصدد، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء
الوטר، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكرى، أو نهار الحيارى^(٢) ".

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ - بقي أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمي في جدّه وهزله فلسفة خاصة يقف

عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه
الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه ، فليست
رسائله في جملتها إلا شذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل
في تلك الرسائل التي تعدّ من ذخائر الأدب العربي ، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير
من المتأدّين ، فانه لم يهب شطرا من منشوره في الدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ،
ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به الى سماء من سموات
الفن الخالص الذي ينسينا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي
أنه أشعرنا بوجوده ، ووقفنا بجده أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء ، ولها
في عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفي به .
فإن الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق
والجمال .

(١) القند : عسل قصب السكر . (٢) ص ١٢

١٩. — ولقد آنحاز الخوارزمي الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه. وفي صف هذا المذهب وقف وقفة خفيفة دللتنا على أنه رجل جلال ونضال، ولكنه لم يشعرا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء: لأنه كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بني أمية وبني العباس. ونستطيع أن نقول إنه في هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها في الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهفات حين عرض للخلفاء في ألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان^(١).

ومن الحق أن نقرر أن الرسالة المطولة التي بعث بها الى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها وكأنها صاعقة تصب على رؤوس من عادى من الرؤساء، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية النضناض. وفيها كذلك يبدو طيبة وخبثه، وكرمه ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول: "فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد آتتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة: فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر^(٢)". وهو تارة متحزب حقود يعدد آثام الخلفاء من بني أمية وبني العباس ويذكر ما آتتفروا من الجرائم في تقريب المغنين، وإقصاء الفاطميين، وله في ذلك لدعات مسمومة يعف قلمنا عن تفصيل ما أنطوت عليه من خبيث الدم وفاحش الهجاء.

٢٠. — ولا يفوتنا أن نشير الى أن في تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة: فقد لوح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التيمي ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدي، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للخط من علي بن أبي طالب، وعرفنا

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُزِقَ ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البختری ومروان بن أبي حفصة الأمويّ وعبد الملك ابن قُرَيْب الأصمعيّ وبكار بن عبد الله الزبيري وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب العبشمي ؛ هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتحامل على آل أبي طالب^(١) .

وهذا كلام ليس جديدا في ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم ، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين ، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ - قابوس بن وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتي الفاضلين نعمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالى قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ - أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريعا لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالى". ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه نحر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن أنهزم نحر الدولة ولجأ الى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفتح قابوس لاجئا الى خراسان . وبعد سنتين استطاع نحر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس في حملته، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفي نحر الدولة سنة ٣٨٧ أعد قابوس حملتين عسكريتين واستردّ ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوءا بالقلق والاضطرابات فانهى الأمر بخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاسية التي عاناها في حياته السياسية أثر بليغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذي يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عباد الأندلسي ، فكلاهما بكى ملكه وحظه ومجده ، ولننظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى وأصبح جمعى فى ضمان التفريق
فقد بقيت لى همّة ما وراءها منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مربكا وتكره ورد المنهل المترقى
فان تلفت نفسى فله درّها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا ونالنا من تهادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفلى وقصرى فضل ما أرخيت من طول
أسرفت فأقتصدى ، جاوزت فأنصرفى عن التهور ، ثم آمشى على مهل
مخدمون ولم تخدم أوائلهم مخولون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى فأحس منها فى الفؤاد ديبا
لا عضولى إلا وفيه صباة فكان أعضاى خلقن قلوبا

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الانشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة

جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد عنى بدراسته من المتقدمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود اليها الأدباء بالنقد والتحصيل ، لأنها مكحلة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المنجح كقوله :

”صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه“ .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قبل أن فى أوله سجعا وفى آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أول القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أول القرينة الثانية .

ومنها المثل كقوله :

”ولا يعجبني أن يكسوء مكارمه كلف الجمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

”أين الطبع الذى هو للصُدود صدود، وللتألف ألوف ودود“ .

وسماه كذلك لأن أسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود

وصدود من جنس واحد، والتألف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

”إذا خالف، فأحسبه قد خالف، وإذا أعار، فأحسبه قد أعار“ .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : فخالف وخالف فى صورة واحدة،

وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وأنظر كيف علّق على قوله :

”قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار“ .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثل

سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه

القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتفى به قرائحهم ، فإنى قد أجلت الفكر فى عدّة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النفور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع^(١) .

وفى مكان آخر يقول :

”وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مبين ، فى الفصاحة والعدوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على ألسنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوّة العلوية^(٢)“ .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقاً من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق الزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعاً من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بها المتقدمون . وكل ما يمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن أن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن تقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلاً قول الثعالبي فى الزوزنى الكاتب :

”يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“ .

فان هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حلت ما فيها من استعارة لأعياء الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوزة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبي أيضاً فى أبى الفرج البغيا :

”له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام“ .

فان الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه عرض ما مرّ
بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يخلق أحيانا
ويسفّ حينا . فمن المستجاد له هذه العبارة :

”ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف النجول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف نثر ابن العميد :
”ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيري
زئيره ، وما ساجلت ببعيثي جريره“ ^(١) .

فان الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم أنتقل فقابل بين
الصفيرو والزئير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله ”وما ساجلت ببعيثي جريره“ فان القارئ يحتاج
إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى
البعيث وجريرو من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

”حتى يثمر ما أزهرو من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل“ ^(٢) .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :
”الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمونها العجائب“ .
فان الانتقال من الشجرة إلى البيضه شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

”أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب ، أم
من صفاقة الدهر مجتّ نبوه فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إباطه فقد
أبى على كل علاج“ ^(٣) .

ذات الحبك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة،
وأثرت بمآثره أوضاع الثرى^(١) .

وإني لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التي مرت بذهن الانسان الغابر،
فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تعجز عن إدراكها وسائله المادية،
ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكلة من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن
الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هي اليوم أيسر ما يأتي به الانسان في أعوام
الحروب . وستبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان،
فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح .
وسينتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه
من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي
يتصورها الإنسان الحديث . ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود،
فقد تشبث الانسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه في هذه
الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذي تعلق بأهدابه
الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفاني الذي يزججه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات .
وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقزرت في ثقة مصحوبه بالرفق والعطف
أن سيكون للانسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم،
وروح وريحان . ولا أكتم القارئ أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين
في ظلال المعتقدات الجافة التي تنذر بأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للانسان بعد
فراق دنياه .

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الاثار المادية والمعنوية التي يفنى الناس
فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود . والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، علّهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر ، وأنا أكتب هذا ، أن دنونزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تخلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التى حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قشوراً من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا ؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسى بعض الألم فى الأمعاء ، ومع هذا الضعف سلس أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قصر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبية التى لا تقدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أسمى إلا هذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به ، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب ،

حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذي يفضى بالإنسان الى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم الفانى الى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

”إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ولو لم يكن لنا هذا التدريب والممارسة للمشاهدات ، ثم القياس بها على المغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف حيوان ما على صورة مخالفة لمعهدنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه ان كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارئ بحيوان لم نشاهده في صورته الخاصة به . فجاز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارئ جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول في الشرف والكمال ، فلا توجد في شيء من أحواله حال تنافى الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، متزها عن الزوال والانقضاء“^(١) .

وفي رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارئ عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : ”هلا فعل ذلك في الأول ؟“ لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيرا مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فانا أكتب هذا في غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

الستائر، لا يهديني فيها غير الكتاب والمصباح، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال . ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدري القارئ في كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنيق ؟ وهل يعرف في كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون مدغشقر وجودا خاصا بحيث تفترق في حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الافتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! ففي كم جيل شاب ذلك الغراب الذي جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور البطيء جدا الذي يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المتراعى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، في مدى مالا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال . إذن فلنسمح للإنسانية أن تحلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ — وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هي تقديره لنفس الحيوان ، فعنده

أن قوة الفكر والتمييز كامنة في جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه في طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته في دفع المضار عن نفسه وحريمه ، ومستغنيا في تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وأعتاده، ثم ما كان بجبلته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا إلى التزين بزينة متخذة من خارج، وإنما يغنيه حسن شعره في مختلف ألوانه، وأنوار ريشه في صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمدّه على طبع واحد: لا يتبدل حالا بحال، ولا يتغير بين غدق وأصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول:

”كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، في سائر الحيوانات موجود، وفي الانسان — بحمد الله — مفقود. وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة، ومعرفة أفلاطون وأرسططاليس، وفيثاغورس وانبدقليس، وأرشميدس وبطلميوس، وهرمس واليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقي يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم، أن يعر الأطباء طب لهذا الحكيم العالم، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف في الناس معدوم“.

ولقابوس آراء في الفلك والنجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم، يضيق عن نقدها المجال، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك، والعلم يمضي بأقدام راسخة في تحقيق أوهام الأولين، وفوق كل ذي علم عليم^(٢).

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قابوس إنكاره للتكنية: فهي عنده منقصة للآباء. ومن رأيه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء أبته: جاء أبو فلان وأبو فلان، أي أن هذا والبد فلان وذاك والبد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه، فلا يعترض الاشتباه فيه؛ فلما دارت الأيام على ذلك، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس إلى هذا أن التكنية ”ترتب برتبة أهل الذمة، واستعمال لرسم تلك الأمة. وقبيح سمج بالمسلمين، أن يكونوا بسماهم متسمين“ أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب كنية، والكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبدة الله العسكري والحسن بن عبدة الله العسكري فهما متساويان في التسمية وتفرق بينهما الكنية: فأحدهما أبو أحمد، وثانيهما أبو هلال.

= ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا في أصل التكنية ، ولكن لامرية في أنها صارت عادة عربية . فان الجاحظ يتحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكنى بأبي محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبي الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكن لها أحد من رعاياها قط ولا سماها في شعر ولا خطبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وظلظ تركيبها كانوا اذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .
والكنية مألوفة في شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء في الناس والكنى كثيرا ولكن ميزوا في الخلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبي صخر الهذلي :

أبي القلب إلا حبا عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكتنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التثنية في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه في ليلة من ليالي رمضان في غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكناهم بأبلغ الفرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التثنية .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فان انتقلها الى الجوار الإسلامي في هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعاني في كل شيء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيال !

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ - تلك شخصية جذابة أمتُحت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان .

فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه ، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى

ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة

ثم وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك

عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدى القبيلة لولا شفاعته الشافعين ، وظل يعانى أحداث الأيام الى أن توفى فى شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلا ألوفاً لحلوائى بلوغ التأثير

فى أنفس معاصريه . كان صابئياً ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فآمنع ، وقيل بذل له

ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل - والصابئون يحرمون الفول والحمام^(١) - ولكن

حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم

رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على

طرف لسانه وسن قلبه^(٢) . وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سلبم الذوق ، كريم الطبع ،

تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفى حفظه القرآن

كفاية لعصمة روحه من وضر الشرك وقبح الزيف ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار

الأدبية فى حمل حافظه على الأتس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الإيمان .

والصدقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للمسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبيل النفس ، وعظمة الروح . فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجلّ من أن يعادى ويراه لذلك جديرا بالحفظ والإجلال .

٣ - وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره ، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وأفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم نخبته وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا ، وهى في طولها محكمة النسيج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صداقة وحن عميق . ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور في تلك القصيدة جانين من أهم الجوانب في بكاء مثل ذلك الفقيه : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب في ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صور حزنه وتفجعه في قوله :

بُعْدًا ليومك في الزمان فإنه	أقذى العيون وفّت في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذى يبكى به	ان القلوب له من الأمداد
أعزز علىّ بأن أراك وقد خلت	من جانبيك مقاعد العواد
أعزز علىّ بأن يفارق ناظرى	لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز علىّ بأن نزلت بمنزل	متشابه الأعماد والأوغاد

الى أن يقول :

✓ ياليت أنى ما أقنتيتك صاحباً كم قُنية جلبت أسى لفؤادى
 برد القلوب لمن تحب بقاءه مما يجر حرارة الأكباد
 ويقول من لم يدر كنهك إنهم تقصّبوا به عدداً من الأعداد
 هيهات أدرج بين برديك الردى رجل الرجال وأوحد الآحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا ان لم يكن شرفى مناسبه ولا ميلادى
 ان لم تكن من أسرتى وعشيرتى فلا أنت أعلقهم يداً بودادى
 لو لم يكن على الأصول فقد وفى شرف الحدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالبالكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنافث بيننا بمعاود أبداً وليس زماننا بمعاد
 ✓ ضاقت على الأرض بعدك كلها وتركت أضيقها على بلادى
 لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ومن الدموع روائح وغوادى
 سلّوا من الأبراد جسمك وأنثنى جسمى يسيل عليك فى الأبراد
 إن الدموع عليك غير بنجيلة والقلب بالسُلوان غير جواد
 سوّدت ما بين الفضاء وناظرى وغسلت من عينيّ كل سواد
 رىّ الحدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد
 ما كنت أخشى أن تضن بلفظة لتقوم بعدك لى مقام الزاد^(١)

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين،

وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة^(٢)، وأستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلاً

(١) تجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صائبًا يمثل هذا الشعر الحزين ، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ،

وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته ، ولننظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأرقام كمن^ه مرهوبة الإصدار والإيراد

تدمى طوائفها اذا استعرضتها من شدة التحذير والإيعاد

حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد

يقدم من إقدام الجيوش وباطل^ه أن ينهزم من هزائم الأجناد

وتكون سوطا للحرور إذا ونى وعنان عنق الجالح المتمادى

ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ^ه ✓ حط النجوم بها من الأبعاد

✓ ٤ - ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحداث ورفعة شأنه بين

النابيين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه

بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب على فى هذه البلاد

أحد من الحق ما أوجبه ، وأنا ان مدحتك تنكر^ه لك الوزير - يعنى المهلى - وتغير عليك ،

لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمتست ، وما أريد منك

منالا ، ولا عن شعرى عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم^(١) ، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات

الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمثني وإشارة الى ما كان يسمو

إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ - وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت ، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً ، ولكن الصابى آحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه ، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال .^(١)

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكتاب والشعراء ، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا فى عصره .^(٢) وفى أخبار الصاحب اعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب .

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثاراً إنسانية كثيرة الرجوع والحنين . لقد عرف حلو العيش ومره ، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس ، وتلك أزمة يعانيتها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتبديل النفوس . ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء :

” لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال ، لضاق علىّ فيه المرتكض والمجال ، لأن الناس عندنا ، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم ، طائفتان : طائفة مجاملة ترى أنها قد وفئت خيرا ، إذا كفتك شرها ، وأجزلت لك رفدها ، إذا أجنبتك كيدها ، ومكاشفة تنزرو إلى القبيح نزو الجنادب ، أو تدب ديب العقارب ، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق ، وإن غولطوا تلمسوا بلثام النفاق ، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام :

أيارب كل الناس أبناء علة	أما تعثر الدنيا لنا بصديق !
وجوهٌ بها من مضمّر الغل شاهد	ذوات أديم فى النفاق صفيق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون أو شجا لحلوق
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحنةاء حر حريق
اخو وحدة قد آنستنى كأننى	بها نازل فى معشر ورفيق ^(٣)
فذلك خير للفتى من ثوائه	بمسبعة من صاحب وصديق

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٣٦ و ٣٣٥ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠ و ٣٤١ ج ١ ياقوت .

٦ - وبمناسبة هذا الشعر نقترح أن الصابي يمتاز بين معاصريه من الكتاب برقة الشعر وعدوبته ، ويكاد يتر على أنه شاعر فحل ، ولهذا أهميته في تقدير كفايته الشعرية ، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أغرم به معاصروه هو نثر شعري ، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في القد الرشيق يشبه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد خفنا عليك به ظمنا وعدوانا
الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا وأنت أحسن ما نلقاك عريانا
وقوله في أثر العناق :

الى الله أشكو ما لقيت من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا أمترجت أنفاسنا بالتزامن توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ووجدى ما بين الجوانح يلعب
أضفت الى النفس التي بين أضلعي بأنفاسها نفسا الى الصدر توج
فان قيل لى اخترأيا شئت منهما فإني الى النفس الحديدية أحوج

وبديع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ ، فهو عندهم : " من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره " ^(١) وكذلك كان الصابي : فهو يجيد في الصناعتين إجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابي

١ - أما نثر الصابي فهو في الأغلب موضوعي ، لأنه في أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التي يخدمها ، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهي مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأول ما يروعننا من نثر الصابي فناء روحه في البيئة الإسلامية التي يعيش فيها ، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدث بلغته ، وتجري تعابير وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن ، وهو في هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : " لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيله القلوب بنخاظرها ، فاطر السموات وما تظّل ، وخالق الأرض وما تقلّ ، الذي دل بلطيف صنعته ، على جليل حكمته ، وبين بجلىّ برهانه ، عن خفىّ وجدانه ، وأستغنى بالقدرة عن الأعوان ، وأستعلى بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع ، الممتنع على كل مطاوع ومقارع ، الدائم الذي لا يزول ولا يحول ، العادل الذي لا يظلم ولا يحور ، الكريم الذي لا يرض ولا ييخل ، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل ، ذلكم الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين ^(١) .

٢ - ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقي من نفس المنبع الذي آستقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب ذلك العصر كانوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنبيائه خصوصا في المواطن التي يخاطبون فيها الجماهير . وفي ذلك دلالة على أن الروح الديني كان لا يزال حافظا لبعض سحره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بالباب الرجال .

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابي . وانظر مثل هذه الفقرة في ص ٤٣ و ٤٤

٣ - وورود نثر الصابي في شئون ادارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبؤ عنه ميول القراء في العصر الحديث . فان الكتابات التي تعنى بمشاكل كل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا، وإنما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في حملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وإنما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمر المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها ، وعدته التي يعول عليها ، وأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناحة ولا معاملة إلا مع طاعته والاحلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلًا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه وانتوها اليه“^(١) .

٤ - فاذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التي كتبها الصابي على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه وكتبه المكافى السيد الموفق
أؤازره فيما عرا وأمدده برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بي نهج العلا وهو دارس ويفتح بي باب الهدى وهو مغلق

فيمتأى يمتأه ولفظى لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمق
 ولى فقر تضحى الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
 أردبها رأس الجموح فيثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق
 فإن حاولت لطفا فءاء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق^(١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للوك يحز فى أعدائها بظي من القول البليغ حداد
 من للمالك لا يزال يلمها بسداد أمر ضائع وسداد
 من للجحافل يستزل رماحها ويرد رعلتها بغير جلال^(٢)
 من للوارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد^(٣)

٦ - وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابى ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات

الوصفية التى تمثله لنا رجلا فنانا يحكم القول، ويحيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضا،
 وهى غريقة فى لجج إسهابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة
 التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

”وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم
 بهم الآجال، ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان... فنبت الطغاة^(٤)
 اغترارا بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالخنق، وصدقوهم
 القتال فى المعترك الضيق، فلما أستعرت الملاحمة، وعلت الغمغمة، ودارت رحى الحرب،
 واستحز الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصاخفت بيض الصفاح، تداعى الأولياء
 بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) البنية ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرعلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف

الرضى . (٤) البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير، ويقال التقت حلقتا البطان للإمر إذا اشتد .

في الهزيمة، وأعدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وأستلحمتهم السيوف، واحتكت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم النار، وعجل الله بأرواحهم الى النار^(١).

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خيرا بنفوس أهل عصره ، وكان لذلك موقفا في الوصول الى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء ، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والتأثرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى "سياسة القول" يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه "لغة المنشورات الرسمية" فيما كتب عن المطيع لله الى الوزير المهلبى سنة ٣٥١ :

"وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقصور أذهانها . وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجة اليك والى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله ، والذين يكتفون بالإشارة ، ويحتثئون بيسير الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى الى الحد الذى يلحق المتأخر بالمتقدم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما اذا كان ذلك مما يتعلق بعمالات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، الى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكرا، ولمن تأخر فيها مبصرا، ولأنه ليس فى الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورهما، ولا أن يقتصر على اللجة الدالة فى مخاطبة جمهورها، حتى اذا آستوت الاقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به، وفقه ما دُعوا اليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين ، ولا آستراية المستريين، اطمأنت قلوبهم، وأنشروحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، وأستمر الاتفاق فيهم، وأستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة فى المنهاج ، ومحروسون من جرائر الزيف والأعوجاج، فكان الاتقياد منهم وهم دارون عالمون ، لا مقلدون مسلمون، وطائعون مختارون ، لا مكروهون مجبرون .

٨ - على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تتحو منحنى الرسائل الاخوانية، وتجري

فيها المعاني طليقة رقيقة كأنفاس العتاب ، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

”أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها ، وإنافته بك إليها ، ألا يصبر منك على حدوث قطيعة ، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة ، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك ، والأواصر الممتدة عنده لك ، أن يحجم صفوة الحال عما يشوبها ، وينفيها مما يعيبها ، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم ، وسنك المستقيم ، ويعتقد أنك منه كالعين الناضرة التي تصان عما يقذيها ، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها“ .

غير أني ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا لك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عني وليس من حق عني غص أجفانها على الأقداء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت إبتته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

”قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلاحظه ، الوفي بما يحفظه ، نحوك ياسيدي ومولاي أدام الله عزك بالوديعة ، وإنما نقلت من وطن الى سكن ، ومن مغرس الى معرس ، ومن مأوى بر وانعطاف ، الى مثوى كرامة وإطاف ، ومن منبت درت لها نعاؤه ، الى منشأ يجود عليها سماؤه ، وهي بضعة مني انفصلت إليك ، وثمره من جنى قلبي حصلت لديك ، وما بان عني من وصلت حبله بحبلك ، وتخيرت له بارع فضلك ، وبوأته المنزل الرحب من جميل خلائك ، وأسكته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك ، ولا ضياع على ما تضمنه أمانتك ، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك“ .

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابي استمد روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون في ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه^(١).

٩ - ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظته الثعالبي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يجتهد في أستغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمتنثر بطريقة ساحرة خفي بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم.

١٠ - وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها نثر الصابي فإننا نعترف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى - ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزاخرة التي وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلمه ، فاننا لا نكاد نجدده يكرر معنى أو يعيد لفظا إلا في أحوال قليلة تغتفر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابته مع ما فيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية - سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولا عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسؤولية أثر قوي في رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظة عذها عضد الدولة تعريضا به ، وأسرها في نفسه إلى أن ملك العراق فحسبه وأستصغى أمواله^(٢) . وقضى لذلك بقية أيامه في عسر دائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحياة .

١٢ - أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصبواته — ضجيره من المرض — وصاياه المحزنة

١ — "ابن شهيد" اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه رومي^(١) . وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموى ، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير^(٢) ، وكان كذلك من أبرع الشعراء ، وهو الذى يقول :

ترى البدر منها طالعا فكأنما	يجول وشاحها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى	ومفعمة الخالخال مقعمة القلب ^(٣)
من اللأى لم يرحلن فوق رواحل	ولاسرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة	وشدوكما تشدو القيان على الشرب ^(٤)

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن ثقل سمعه حجبته عن الاتصال بالملوك والوزراء^(٥) ، ولكنه آنقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

(١) نفح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن . (٢) نفح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزبادى ميل وارتفاع فى الأليتين ، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم . (٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرائر

ما كنّ يجتمعن على الشراب . (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ - كان همّ أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك^(١).

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب؛ فالحياة عنده وجه أصبح، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بديعة، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل.

وما ظنّ القارئ برجل يبيت في الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شمت بديره	نحر الصبا من جت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرين تخشعاً كبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزوره ^(٢)
يهدى لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفّره التماح خفيه ^(٣)
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلافه والأكل من خزيه

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح في كناس) فتصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طيّ القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبغى متزلاً	لوصل التبتل والانقطاع
بخاءت تهادى كمثل الرؤوم ^(٤)	تتاغى غزالا بروض اليفاع ^(٥)
وجالت بموضعنا جولة	فحلّ الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب نفع الطيب (بالمتهكم في بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحديث عنه صاحب الذخيرة فقال: (أبو عامر ابن شهيد في الطرائف، كان بقرطبة في رفته وبراعة ظرفه خليعها المتهكم في بطالته، وأعجب الناس تفاوتا بين قوله وفعله، وأخطهم في هوى نفسه، وأهتكهم لعرضه، وأجراهم على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر: المنوع، والخشف بالثليلث ولد الطي. (٣) راجع نفع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرؤوم: الظبية الألوفا. (٥) اليفاع ما ارتفع من الأرض.

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علقته التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تجني بعض إخواني على وفارته غنى، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخواني وأعزهم على ، فلما رأني موليا عن ذلك الصديق أنكر على وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيئتهما حتى لحقاني ، وعزم علي في تكليم صاحبي ، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى ، وأشهى من الماء على الظما ، حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فأطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفي يعيدها دعوى^(١)

وحدث المصحفي أيضا قال : دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : هجوتني يا أبا عامر دون أن تثبت في أمرى ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك ، فقال : على تكفيره بما يحويه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى ، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في العتم بوجه يحلّ سواد الظلم
تكتّم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتّم
أنى يستجير الينا به كما جاور البان رطب الغنم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحيابه وأصدقائه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات :

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) اللقيطة بقية طويلة يجدها القارىء في الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تمنيت أنى ساكن فى عباءة
خليل من ذاق المنية مرة
كأنى وقد حان آرتحالى ولم أفز
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى
عليك سلام الله إنى مفارق
فلا تنس تأيبنى اذا ما فقدتنى
وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
قديما من الدنيا بلمحة بارق
يدا فى ملمأتى وعند مضايقي
وحسبك زادا من حبيب مفارق
وتذكر أياحى وفضل خلائقي^(١)

٦ — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يُبكى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كآف وجوههم
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب^(٢)
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر
يحل عرى الجبار فى دار ملكه
وليس عجيبا أن تدانت منيتى
ولكن عجيب أن بين جوانحى
يحركنى والموت يحفر همتى^(٣)
وجوه مصاييح النجوم الزواهر
بكوا بعيون كالسحاب المواطر
أقلوا فقدما مات أبناء عامر
بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر آخرى
هوى كشرار الجمرة المتطائر
ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًا عجيب، فإن ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علقته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولتنظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة . (٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر . (٣) يحفر : يقطع .

أقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصَّ عمرًا بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصا على وأولاهم بتمكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه اللبالي "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيبا وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حمالك الله تقديمي
عشنا رفيقين في بر الهوى زمتنا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتنجيمي

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودّع
إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم وكل خرق إلى العلياء سبّاق^(١)
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصايهم ويردى باحراق
وكوكبا لي منهم كان مغربه قلبي ومشرقه ما بين أطواق
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفي الصدر منى حر مشتاق
فان أعش فعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساق
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلّق فيه غير أخلاقى!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يثلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطني فأقتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجالي ، ويكتب على قبره في لوح رخام
هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معروضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الظريف في سخاوة ، والفق الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود!

فقال لي : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيد

تذكر كم ليلة نعمنا في ظلها والزمان عيـد

وكم سرور همي علينا سخابه ثرة تجود

كلُّ كأن لم يكن تقضى وشؤمه حاضر عيـد

حصـله كاتب حفيظ وضمه صادق شهيد

يا ويلتا إن تنكبنا رحمة من بطشه شديد

يارب عفوا فأنت مولى قصر في شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السوق ، فيسر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والويل .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجحوا لابن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانته ، والعجب منه أنه كان يدعو
 قريحته لما شاء نظمه ونثره في بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صنعته ، ويشهد من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائع ، وكان في تميم الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه ^(١) .

وقال للثعالبي : " فنثره في غاية الملاحاة ، وشعره في غاية الفصاحة ^(٢) " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحزن معه
 الكبير إلى صباه ^(٣) " .

وقال الحناط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الأبواب سهام
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظاما ، شامخا بأنفه ،

ثانيا من عطفه ، مخيلا أنه أحرز السبق في الآداب ، وأوتى فصل الخطاب ، فهو يستصغر
أساتيد الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لَزَّ في قَرَن لم يستطع صولة البزل القناعيس^(١)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والشعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين
في ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حينما من الزمان . ولو آتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه
مفتونا أشنع الفتون بما أعتقده من إجادة النظم والنشير ، والتفوق البالغ على كتاب المشرق
والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف مافيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه في شعر ابن هاني ، الأندلسي فأجاب : ”رَحَى تطحن
قرونا“ وهو جواب حذق وذكاء ، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن
يكون الأمر كذلك في نثر ابن شهيد ، فهو في الأكثر جمجمة وقعقة وقلقلة في غير نفع
ولا غناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه في نثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم ،
ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه ، وراجعنا ما بقى منه
أكثر من عشرين مرة ، فلم نزد إلا اقتناعا بأنه كان في إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في نثر ابن شهيد غرام الرجل —
كان — بمقارنة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه
بريق يعشى العيون . وكان النثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جديدة ، وأستطاع
ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى
التقائض في عالم الشعر ، فوقع له مع الافليلى والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس
المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع
خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قنعاس بالكسر وهو العظيم
من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه آنحدار بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشروء .

٤ — ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلي فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليلي :
” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر^(١) “ .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جد كجا ، وحسام نبا ، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميا ، وتلق علينا الخطوب مراسيا ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى صحبة ، وحليف صبوة ، قد تخلىنا عن الأنساب ، وأنتسبنا الى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملتقى كشب ، والزمان غر ، وحواصلنا صفر ، نترنم ترنم الحمام ، على زرق الحمام^(٢) ، ثم ألفت الأيام علينا بكل كل ... فنشرنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفحمت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

(٢) الجمام :

المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المني من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة العواء^(١) ، وكلما دعت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فيما لديك ، وهيهات ! يأبى ذلك كرم محض ، وهمة علياء ناهيا خفض ، ثم قلت : الجمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويجاذب العطاء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا ثم مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله

يصف إحدى المنافات :

” لما قدم زهير الصقلي فتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطنبى ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساجدا لذيلى لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن فى أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألته عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على ، جالبا فى المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

(١) العواء : من منازل القمر . (٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١ .

مرض الحفون ولغة في المنطق شيئا جرا عشق من لم يعشق
من لى بألغ لا يزال حديثه يذكي على الأكباد جمره محرق
ينبى فينبو في الكلام لسانه فكأنه من نحر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهورق

ثم قتت عنهم فلم ألبث أن وردوا على^١، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديهة : وسألوني أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأخفش، فلم أستحسن الإخفاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدّثنا في "التوابع والزوابع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والخطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية، ونعت الماء والتعلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل فى جملة ما تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفاذا من شعراء الحجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح"

وقوله فى وصف البعوض :

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته"^(٢).

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيههم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «أضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسأل من لعبه، وآزور جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إخفاش لم نر روايته لأننا لا نستهجن رواية الهجاء القديح الذى يجرح الأدب والذوق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١ (٢) البيضة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربـه « ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفـها واحدا واحدا ، فالفالـونـج
 ”بـجـاجة الزنايـر خالطها لباب الحبة ، بجاءت أطيب من ريق الأـحبة “ والخـيـص ”جلـيد سماء
 الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة “ ، ثم يقول ابن
 شهيد بعد كلام : ” فأمرت الغلام بابتـياع أرطال تجمع أنواعها التي أنطقـه ، وتحتوى على
 ضروبها التي صرعتـه ، بجاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها
 بـجـرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحـاش بفـخذيه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك
 حـكـما ، فجعل يقطع ويبلغ ، ويوجـرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما بـجـرتان ، وقد برزتا
 عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو
 يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى النقم جماهرها ، وألحق أولها بأحرها ، فهبت منه ريح عقيم ،
 قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بعر ، فالتحنا منه
 الظـر بان ، وصدق فيه الخبر العيان “ .^(١)

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية ، والنكتة
 فى الرسالتين متشابهة ، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء
 بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول
 وقد استدرج سواديا بالكـرخ :^(٢)

” فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ،
 وطعامه أطيب ، فاستفرتـه حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ،
 ثم أتيت شواء يتقاطر شوائه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا ، فقلت : أبرز لأبى زيد من^(٣)
 هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ؛ وأختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ص ١٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفى اليتيمة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفى النسختين
 اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف
 النسختين . (٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع

فى التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيثاً من ماء السماء^(١)، ليأكله أبو زيد هنيئاً، فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكلج سحقاً، وكالطين دقاً، ثم جالس وجلست، ولا نبس ولا نبست، حتى آستوفيناها وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى في الحلق، وأسرى في العروق، وليكن ليلى العمر، يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤى الدهن، كوكبى اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئاً. ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، وآستوفيناها. ثم قلت: يا أبا زيد! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة^(٢)، ويفتأ هذه اللقم الحارة^(٣)! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بسقاء، يحيينا بشربة من ماء. ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يرانى، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال: ما أكلته إلا ضيفاً. فقال الشواء: هاك وآك، متى دعوناك؟ زن يا أخا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثاً وتسعين! فجعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد! “.

وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوفاً بأدبه ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا في ”التوابع والزوابع“ أنه قابل بأرض الجن (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد. وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين.

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدمه كذلك الى شعراء الجن فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات تليح بمغامر الفتك والمجون، وكانت جاريته ”أخت نعمة، وريبة نعمة، كأن شعرها على

(١) الساق: حب أحمر صغير شديد الخوصة يشبه الرمان.

(٢) الصارة: العطش.

(٣) يفتأ: يسكن.

غمرتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء... تسكلمك بالحاظها، وتأسوك بالقاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بمرجسة، كأنما ثغرها من جوهر، وشفقتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرة رمانتان، وتنقتل عليك بكفل مانج، كأنه كشيّب عاج... المنظر منظر غلام، والمخير مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو علتك تداركت عليك، وإن أعطشتك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت نخرة أو رضاب، أو أجاعك عرا كها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان^(١)“.

٨ - ورسالته عن النار والخطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهى رسالة مهداة الى صديق نفخه بأحمال من الخطب الجزل - والخطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء - ولننظر كيف يصوّر اصطدام النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلت مجنّى خطبا دل على نفسه، وتشظى من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بلبات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيح، وله من حرها ضجيج، ثم خرّ لها صريعا، وأستولت عليه صعبا منيعا، فبددت شمله وألفت شملها، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى بألوان، وتهتد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خرّ لها على جبينه، ومات بها من حينه“^(٢).

٩ - وبعد فان نثر ابن شهيد - على ما فيه من مآخذ وعيوب - دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشد الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح مر موق، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء، وفى هذا برهان على أن الرجل أمدّ عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذي طرب له كتاب الصنعة في المشرق والمغرب ، وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحه من نثره الذي جرى فيه على سليقته وفطرتة ، وأنحاز فيه الى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزالقي الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان في عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فإنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا نقصد وننقض ، في سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحية وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميكالى

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتنفياً ظلّهم أبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمدانيّ، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والأزدواج فى رشاقة وعذوبة وآساق . وفيه يقول الشعاليّ فى مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمه على فكره، من ملحّ تترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وآيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالآقتباس من نوره، والإعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وأتتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أياى عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبل القطر ! فانها كانت بطلعتة البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المراتب التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوى لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها
الوشى الصنعانى، فلم تشبهُ إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسما، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، ورَوْحاً وريحانا ونعيا“ .

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب ، وكف الهوى رحب ، وشرب الصبأ عذب ، وما لشرق
الأنس غرب“^(١) .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب ، وجع بأكثر مما متع ، وأوحش فوق
ما أنس ، وعنق فى نزع ما ألبس ، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع ، حتى جرعنا مرارة الفراق ،
ولم يمتعنا بأنس التلاق ، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق“^(٢) .

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد على برد العيش الذى فقدته ، وفسحة السرور الذى عهدته ،
فيقصر من الفراق أمدّه ، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذى رقت غائله ،
وصفت من الأفداء مناهله ، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم ، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى بدى الأثل صيفاً مثل صيفى ومربعى

شددت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله عزيز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق
الأشتياق أسيرا“^(٣) .

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

”كأبي، وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاجل، أو كابدته الخلى لا نثني على كبد ذات حرق ولواج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوي رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخجل عليهم بما يشفى الصدور والأبجاد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلاظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنائه بعثرة حال والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها، وتتخذ كالسهم إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد التازح، وتسهيل الصعب الجاح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأتم ما لم يزل معهودا، ويحدد للذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملبى به والقادر عليه“.

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان

يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتاب والشعراء، فراه يقول :

”يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبده، ومغلب ظلم يحده .
ولو أنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراق، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا وافي“.

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

”لو أستطعت لخلعت عليه سلامتى سربالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتها بالعاقة مع سقمه، ولا أمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه“.

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمة .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا في مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محوم بخير صائب^(١)، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل وفي القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرقي ، وبياضها جلدة بين عيني وأنفي ، وحاملها دون سائر الناس كفي . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أ كباد وقلوب ، وكانت بيني وبين النوى شئون وخطوب . أنا في مفارقتك كبنت الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسي فيك أشواقها ، حتى تفارق الحمام أطواقها “ .

٤ — وأهتمام الميكالي بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام في وصف الكتب يتهاذاها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسیدی أبدع الكتب هوادی وأعجازا، وأبرعها بلاغة وإعجازا، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة، ومعانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائزة بقداح الحسن والظرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الغرر والأوضاع ، كما أطلق فيها السنة الثناء والامتداح “ .

٥ — ويجانب هذه البراعة كان الميكالي كريم الأخلاق ، وما ألطف ما يقول الثعالبي فيه :
”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت في أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتعطرت بغيار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته أغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعاطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه.”

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالي بأصدقائه وألأفه آتتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجوع أدبه الى المعاني النفسية التي توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب آقتضاء، أو مألكة تهنتة، أو نميقة ثناء . والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بإرشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغى الاحتياط فى فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين ، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب ، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله :

شافة كفى رشاً بقبلة ما شفيت
فقلت إذ قبلها ياليت كفى شفتى

وقوله :

من لى بشمل الأئس أجمعه بشادن حلّ فيه الأئس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لان بعد الصد أخذه^(١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخذع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع .

وقوله :

كَمْ والد يحرم أولاده . وخيره يحظى به الأبعد
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو في كلا الفنين صناع اليد
ذكي الحنان .

٨ - وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في نثره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد انتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطننا لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فاستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى في الأفطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينتقضي الحول

سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الحق لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن استقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد آستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب الغوث ، ولكن الناس لم ينتبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يؤس من النجاة .

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطارده، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكتته، ومن
لم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان
صاحب عجائب، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى،
وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهتد بها
عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب
الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء
وأملح^(١)، ويوشع القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة، ويقترح عليه
كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس
لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات
الحدّة، وثمرات المدة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح
عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا
كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همدان سنة ٣٨٠
وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
ما عنده، وأستنفد علمه، وأستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن
آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكنافهم، والاعتباس

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم ، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعها لديه ، وتوفر حفظه من عادته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأزاح عله في سفرته ، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشر بها بزه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها ، وضمنها ما تستهى الأنفس ، وتلد الأعين ، من لفظ أنيق قريب المأخذ ، بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول . ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمذاني وعلو أمره ، وقرب نجمه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتاب والشعراء ينهري لمباراته ، ويحتري على مجاراته ، فلما تصدى الهمذاني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان ، وقرع النبع بالنبع ، وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأدزله أخلاف الرزق وأركبه أكتاف العز . وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجو للهمذاني وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة ، ولم يبق في بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة أدخلها ، وجنى ثمرتها ، وأستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوء ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم ، وألقى عصاه بهراة وأتخذها دار قراره ، وجمع أسبابه ... وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي ... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره ، وتعرفت القررة في عينه ، والقوة في ظهره ، وأقنتى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة ، وعاش عيشة راضية . وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب ، وأنثلم حد القلم ... الخ^(٢) .

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) البيهية ج ٤ ص ١٦٧ + ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٣ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي استفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس / إذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من أهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدي ، غير أن التوحيدي كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحشدنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي إلى العجز ، كما يساق الماء إلى الأرض الجُرْز . ثم قال بعد كلام في الشناء على من وجه إليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا ووطننا خراسان فما اخترنا إلا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فتشوقه ، ونخبره على المغيب فتعشقه ، ونقدر أنا لو ووطننا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظممتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف ، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف ، وقد كان أتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق ، لم يوجبهُ استحقاق ، من بزة بزوها ، وفضة فضوها ، وذهب ذهبوا به ، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلا قصبة جواره ، ولا وطننا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها ، وأحوال أنس نظمناها . فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دنه ، وأجنانا سوء العشرة من با كورة فنه ، من طرف نظر بشرطه ، وقيام دفع في صدره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخف بأمره . لئلا أقطعناه جانب أخلاقه ، وقاربناه إذ جانب ، وواصلناه إذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الأمر في ذلك الى زى استغثه ، ولباس استرته ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونسلس قياده ، ونستميل فؤاده ، ونقيم مناده “ .

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح عله في سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال ، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي ، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته ، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث ، ولباس رث .

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي .

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحنة :

” الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلعة ، في أطمار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الأهترازه أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشرط الكف ، ودفع في صدر القيام ، عن التمام ،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى المدرس ، ومعاذ الله أن تكون « طلعة المعلم وحشة »

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربته صعرا، وأحتملته وزرا، وأحتضنته
نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال،
وفي هذه الأسمال، أتقرز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت
إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .
وفيهـم مقاماتٌ حسان وجوههم . وأنديةٌ ينتابها القول والفعل

ولو طوّحت بأبي بكر أيده الله طوائح الغربه ، لوجد مغنى البشر قريبا ، ومحط الرحل
رحيبا ، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب
الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفق ان شاء الله تعالى .

فأجاب الخوارزمى :

”وصلت رقعة سيدى ومولائى ورئيسى أطل الله بقاءه الى آخر السكاج ، وعرفت
ما تضمنته من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه
من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه!
أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما،
على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله
عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل،
وناصراه التأويل والتنزيل، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى
عنهم فكما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة، وكال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم
فأحدث المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجدٍ عندنا بذيـم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى
بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة، وإن قطع على طريق عسرتى بالمعارضة،
وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معيها

وبعد فحبذا عتاب سيدي اذا استوجبنا عتابا ، وأقترفنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العريضة
فتحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن أحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفرلنا
إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين .“

٦ - وهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وأتقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي
« ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاولت المدة » ومشى
الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع
الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتداء النضال ،
ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

(١) صورة المناظرة

”... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفص ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه
فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأستترناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتبدأ
ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما أجمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتان فورتك ، ولا ترقص
لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتتلاءم المجلس فوائد ، وتذكر أبياتا شوارد ،
وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا
موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع معك ،
والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب تنفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالاته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف أستطاعت
اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدي نوعا من القصص في تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة
الأدبية فرارا من التطويل .

فأسمع خيراً وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقرانك ، وملكمت به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به أسمك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... بخارنا بفرسك ، وجُد لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبدئية إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها أبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأخفم عن الحفظ رأساً ، ولم يحل فى النثر قدحاً . وقال :
أبادهك .

فقلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتاً ليجيز . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت جزءاً فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستنزف فيه يومه ، ودقونه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجمان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتاً ، وسأقرن كل بيت بوفقه ، وأنظم كل معنى الى لفقه ، بحيث أصيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطى أن لا أقطع النفس ، فان تهياً لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أو لى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أملته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنحى لنا عن أرض المائلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد لإنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر المحجة ، وتستقل الشبهة ، وتتطرد فيعرف الحالى من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليحيز فتبعنا رأييه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ	وبروكه عند القريض ببركهِ
متسرع فى كل ما يعتاده	من نظمته متباطئ عن تركهِ
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه فى فكهِ
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر الى بحر القريض وفلكهِ
فتى توفى فى القريض مقصرٌ	عمرّضت أذن الامتحان بعركهِ
هذا الشريف على تقدّم بيته	فى المكرمات ورفعته فى سمكهِ
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم أنكهِ
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى	وحطمت جارحة القرين بدكهِ
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغه وبدلكهِ
أصغو الى الشعر الذى نظمته	كالدّر رصّع فى مجرّة سلكهِ
فتى عجزت عن القريض بديهة	فدمى الحرام له إراقة سفكهِ

وقال أبو بكر أبياتا جاهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من الخاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فما لك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكايه وهى الإهانة .

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمضي على غلوائه ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند ، ووضعت اليد على اليد ، وقلت استغفر الله من مقاتلك ونفصتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ، أني أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفي للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف أمتن عودة من نبك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همدان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا الذي نمدح به وتبجح وتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، وأجتديت فأقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحب اليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الورد لهذه الشرعة ، مرمل اليد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه ، ويزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرفني إلا بعين الرهبة ، ولا يمد اليّ إلا يد الرغبة ، ولو كان الغني حظا لأخطأه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غنما لما أدرك بهذا السعي . ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مخرجاً بدمائك ، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى صفت مشارعك ، وأخصبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقه بذكرك ، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت :
يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها ، ولم يسرك مصنوعها ، فقال : أنشد !
فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكتة ، وأخبرته النكتة ، وأنطفأت تلك الوقدة ، وأنحلت تلك العقدة . وأطرق مليا
وقال : والله لأضربنك وإن ضربت ، ولأشمتنك وإن شمت ، ولتعلمن نبأه بعد حين ، ولتعلمن
أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك
وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك ، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك ، متعدي في تهديده ،
لأنك كهمل وأنت شاعر ، وكنت شابا وأنت مقامر ، وكنت صبيا وأنت مؤاجر ، فنطاق القدرة
في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد ، لسكا نصفحك الآن وتضربنا فيما بعد ، فقد قيل اليوم
قصف ، وغدا خسف ، وقيل اليوم نحر ، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة ،
واتخذت السندس والإستبرق جنة ، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج
في برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث ، وشملك من الصفع ما طاب وخبت ، وأنشدت
قول ابن الرومي :

إن كان شيئا سفيها يفوق كل سفيه

فقد أصاب شيئا له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأترلني طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت أمرا لا أشاكلة

أحامقه حتى يقال سجيحة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودفع القوال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات ، وجعل النعاس يثني الرؤوس ، ويمنع
الجلوس ، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وطئ من مضجع ، ومهد من مهجع ،
ولم يكن النوم ملء الجفون ، ولا شغل العيون ، حتى أقبل وفد الصباح ، وحيل المؤذن بالفلاح ،

ونذب الى النهوض ، بالمفروض ، فأجبنا . فلما قضينا الفرض ، فارقنا الأرض ، فأوى الى أم
 مشواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما ، ويبكى على ماجرى دمعا ودما ،
 فانه إذا سمع بحديث هذان قال : الهاء هم والميم موت ، والذال ذل ، والألف آفة ، والنون
 ندامة ، وأنه إذا نام هاله منا طيف ، وإذا آنتبه راعه منا سيف ، وأخذ الناس يترازنون بما
 جرى ويتغامزون ، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد فجعل
 يحلف للناس بالعق ، وتحرير الرق ، والمكتوب فى الرق ، إنه أخذ قصب السبق ، وإنه ينطق
 عن الحق ، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بيننا بالصلح
 يحكمون قواعده ومعاقده ، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتردين اليه فأوما إيماء مهيمضة ،
 وآهترأهتازة مغيضة ، وأشار إشارة مريضة ، بكف سحبها على الهواء سحباً ، وبسطها فى الجوّ
 بسطاً ، وعلمنا أن للقمور أن يستخف ويستهن ، وللقامر أن يحتمل ويلين ، فقلنا إن بعد
 الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا ، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها ، وطرق
 فى الخلطة نسلكها ، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها ؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت ، والجميل
 أجمل كما علمت ، وسنشترك هذا العنان . وعرض علينا الإقامة عنده سخابة ذلك اليوم ، فاعتللنا
 بالصوم ، فلم يقبل العذر وأخ فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده ، وأخذنا دندانُ مزده ،
 وخرجنا والنية على الجميل موفورة ، وبقعة الود معمورة ، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه ، ولا تنتقل
 إلا بذكره ، ولا نعتد إلا بوده ، لا بل ملأنا البلد شكرا ، والأسماع نشرا ، وبتنا نحن من الحال
 فى أعذبها شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة ، ومن المودة
 فى أعزها بقعة ، وأوسعها رقعة ، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقاتته ، مؤديان لرسالته ،
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار ، وتظاهرت الآثار ، فى أنك قهرت وأنى قُهرت
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل ، قبله العقل . ولا بد
 أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فتتناظر بمشهد الخاصة والعامة ، فانك متى لم تفعل ذلك
 لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعيجت كل
 العجب مما سمعت ، وأجبتته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتجبح بقسرك . وإن لهنفسك عندك لشأنا إن ظننتنى أقف هذا الموقف ، أنا ان شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس أسأل الله سترًا يمتد ووجهها لا يسود ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التسائر ، فان كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفا فيه خير لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك ، موفقا . فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحي كلها فلم تنشد الا بيت القائل :

وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغنم الذئبُ

فكم تتكوكب تلامذك ويتعسكرون ، ويتحيش أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين اثنين : إحداهما تروح الى أنثى وتغدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك بمسلمات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفر من القدر المتاح ، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا لم نحسبها ، ووصلت موقفا لم نرتقبها ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الغيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال : قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسترى فى يومك ، وتعرف فى قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا والى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسماع مصغية وأستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن يَزيق^(١) وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه ، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وغامر أرض الوحي والمحتبي بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بحذقه ، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فخشم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه ، وحديث كان شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سواي في موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغرة لأئحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يملكك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت في البلاد ، ولم تسر بزاد ، وطارت في الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكنني أَسْوَقُ بها لديكم ولا أتفق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين أدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدني بعضها فقلت :

يا لمةً ضرب الزما	ن على مُعرّسها خيامه
لله درك من نُحْزا	مى روضة عادت ثغامه
لرزينة قامت بها	للدن أشراط القيامة
لمضرج بدم النبوة	ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
مُنِع الورود وماؤه	منه على طَرْف الثّمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الورى نصب العلامه
ومقبّل كان النبي	بلشمه يشفى غرامه
قرع ابن هند بالقضيب	عذابه فرط استضامه
وشدا بنغمته عليه	ه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولّى الكنا	ب قفاه والدين أمامه
ليضرسّ يد النداء	مة حين لا تغني الندامه

وليدركن على الغرا	مة سوء عاقبه الغرامه
وحى أباح بنو أمية	ة من طوائهم حرامه
حتى أشتفوا من يوم بد	ر وأستبدوا بالزعامة
لعنوا أمير المؤمنين	ن بمثل إعلان الإقامه
لم لا تخزى يا سما	ء ولم تصبى يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا	ل ولم تشولى يا نعمامه
يا لعنة صارت على	أعناقهم طوق الجمامه
إن العمامة لم تكن	للئيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبها	دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبق	مع وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو	ع وأرسلى بددا نظامه
جودى بمكنون الدمو	ع أجذب بما جاد آبن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما اعتقدت، انخلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شمية من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيدى الله وهو الرجل الذى يحميه للألأوه ولودعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينة وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيدى الله.

”وما منهم إلا أغر نجيب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسي :

”وكل إذا عد الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقْد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قدحه المعلى ، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة ، والأسوكة المرسلة ، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال ، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي ، فلما أخذ المجلس زخرفه من حضر ، وأنتظر أبو بكر فتأخر ، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقتراحات كانوا يبتوها ، فما ظنك بالخلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، وبيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه ، ونفس لم أقطعه ، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت ، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى نقترح القوافي ونعين المعاني وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروي الذي أسومه ، وذكر المعنى الذي أرومه ، فأنت حتى القلب كما عهدناك ، مشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك ، وشهدنا أنك قد أحسنت ، وأن لاقتي إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى آرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام ، ما لم ترهم الأحلام ، وجادهم العيان بما يخل به السماع ، وأنجزهم الفهم ما خلفهم الوهم ، ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته وهب بجملته ، بأوداج ما يسعها الزران ، وعينين في رأسه ترران ، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تخرج عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار ، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة أشقت إماما من النظر أو من النظير ، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضل
ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل
من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل
حريصاً على اللقاء ، سريعاً إلى الهجاء .

”ولو زبنتك الحرب لم تترمرم“ .

ففى أى علم تريد أن تتناظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلت: يا هذا إن اليوم قد متع . والنهار قد
آرتفع ، والظهر قد أزف ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فما ذا يخرج الناس ، فعلا هتاف
الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى الحبيب . فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآنلى
ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل .
ثم أنا أجاريك فى هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا ، وآرتفعت المضاجعة
وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب
خراسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كما نعتقد لك السبق
والحدق ، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، وأضطره الى منازلة أو نزول عنها
ومقاراة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأئشدت قول القائل :

ومستلّم كشفت بالرح ذيله أقمت بعضب ذى شقاشق ميله
بجعت به فى ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتاً من
الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر
واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم
والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت :
الراجع فى شيء ، كالراجع فى قيئه ، لكنا نريك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتاً من
قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك نحرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً ، كما سلمه بادياً ، وصرنا الى البديهة ، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاَضٍ ورعى سواد قرونه ببياضٍ

فأخذ أبو بكر يخضد ، ويخصد ، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه ، أو نوليه جانب وسواسه ، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها ، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذى تقضى علينا راضٍ

فلقد لبست ضفية مملومة من نسج ذاك البارق الفضفاض

لا تغضبني إذا نظمت تنفسا إن الغضا في مثل ذاك تغاض

فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض

ولقد قرضت الشعر فاستمع ولنشيد شعر طائعا وقراض

فلا غلبت بديهة بسديتي ولأرمين سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية مملومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأناكر

أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى

قولك ذئب غاض ؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا ، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأنتقلت

القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا ، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذاك تغاض

فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء ، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأناكر البيت

جملة ، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك ، وتبرأ منه وهو يلحق بك

فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرض الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت

الحشو الى القافية كما سقته ؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل

الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الخيرى وطبقة من الأفاضل مع

عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة ، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهمهم وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعوني من البديهة على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بغناؤه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرئين خير جلاؤه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بحي أعز محجر وندي أغر	محجل في خلقه ووفائه
يعشو اليه المختوى والمجتدى	والمحتوى هو هارب بدمائه
ما البحر في تزخاره والغيث في	إمطاره والجو في أنوائه
بأجل منه مواهب ورغائب	لا زال هذا المجد حالف فناؤه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ،

وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا ونقدنا عليه فيها كذا نقدا ، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفقه وأديب : رأيتم لو أن رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقد على فيما نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت اليه ، فكفتني الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال الى
عيب يوقيه من العين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الأقطار ،
تحت ورق الأشجار، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات
مثل المغنى، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت
زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجاب
البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون
له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أدبياً لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو
السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ،
وأى الخضمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقونى
على الظفر . فقالوا : كفاك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح على غاية ما فى طوقك ،
ونهاية ما فى وسعك ، وأختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعاً صنف فى الترسل
فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف
ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتاباً يقرأ
منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك وأنظم
شعراً فى المعنى الذى أقترح وأفرغ منهما فراغاً واحداً ، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك
اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأشد من القصائد ما أريده من غير تماقل
ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ،
هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً ، أو تجيل قدحاً ، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك : اكتب
كتاباً إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً . هل كنت
فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً فى المعنى الذى يقترح
ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهية ولا يحتم
فيها قلمك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام تصب
معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفاً
مدوحاً أو يبعثك ربك مقاماً محموداً؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل ، أو تبلى لهاتك بناطل ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطره كلها ميم وآخرها جيم ، على المعنى الذى يقترح ، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة ؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرجا وسرد معوجا كان شعرا هل كنت تقطع فى ذلك شعرا ؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك ، وتقطع ولكن من ذقنك ! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا وإذا فسر على وجه كان قدحا . هل كنت تخرج من هذه العهدة ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبتة تكون قد حفظته ، من دون أن لحظته ، هل كنت تنق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده ، بل آست البائن أعلم ؟ ! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طرمذة ! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأشهر فيها قلمك ، وأسبر فيها لسانك وفك ، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبل ، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك ، ويعارض إنشائى بإنشائك . وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعاتها والأسعار وغلاها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

” الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل الى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وننويه من الخير للبلاد ، وتعرفنا فى ذلك ما يرجح للناس فى الزرع والضرع ، ويعود اليه أمر الضر والنفع “ .

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع
أسجاع قد نبئت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافّة وقالوا الى :
أقرأه ، فجعلت أقرأه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تترق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملاء المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديها ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحط أن
في اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما
نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانجعبنا كرمه ، بارقة وشمنا هممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ،
وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجمل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى (إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها أنقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذي كتبها وتلك
مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن
نشئت ومجل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بجمل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على هممه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانجعبنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ،
فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن نتضرع اليه في أن يحط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديها ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملاء بها صدور المحاضر
إن شاء الله .

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقدا ، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أمساه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطلبك بسواه ولا أسألك عما عداه ، فوقف حماره ، وحمدت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدونني بالأهتات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت إليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أنى قتلت مناسبي جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرعت في الجفان ، وأسرعت إلى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضا ، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم غشى عليك؟ فقال : لحمي الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجحد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مغصا ، وفي عينه رمصا ، وفي جلده برصا ، وفي حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البراء، وعلى هامك الثرى، ولا أطعمك الخ... إلا من وراء، كما ترى
فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا إلى وقالوا: ملكت فأصبح! فأبى أبو بكر أن
يبقى لنفسه حمة لم ينفذها، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميمات،
فقلت: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومجوم ومرجوم،
فقلت، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجدام والحمام والزكام والسام والبرسام
والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منخوس منخوس منكوس معكوس
متعوس محسوس معروس وبين الخاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ
ممسوخ مفسوخ وبين الباآت فقد علمتني الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب
ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب. وإن شئنا كلنا بهذا الصاع،
وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت
واحتجرت فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقيلا،
وبالأنفاه تجيلا، وانتظروا خروجه إلى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل
بجنوده وخلع الظلام عليه فروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

١٦ - نمر بدیع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهو وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

”فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمى الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام ترى من أفعالها غريبا ، أو تسمعى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حاقى سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره“ .^(١)

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهي مضطربة متأججة ، فترى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوثب كما تتوثب السنة الجحيم ، كقوله في خليفة أبي نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الخيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن أستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

أن أراك محتاجا إليك، أف لقولك وفعلك، ولدهر أحوج لمثلك^(١) ! « وليتأمل القارئ
« ان استطعت أن تراني محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية في التهكم اللذاع .

وفي مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أني طعام ، فلا والله إن لحمي حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التي تمنع الأكلات ... ومن شمتني من خلف ، بخزائه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق في ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لحمي للقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى في المضغ ، وينشب في الحلق ، ويقلق في البطن ، ولا
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وان كانوا شهاوى^(٣) » .

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبي بكر الخوارزمي ، وكان لذلك مغرما بالنيل
منه والوقوع فيه . ومريض الخوارزمي ، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهينه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى في هذه التهينة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبيله ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

« الحر ، أطال الله بقاءك ، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفتي ،
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى ، فان وجدت فهي عواري ، وأن
محن الزمان وإن مطلت فستفد ، وان لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها
في نفسه ، ولا يعدمها في جنسه ؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ،
وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة .
والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاء الله وان ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه
ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم يتقاد ، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقانى سماع سوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبي يعزيه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

” أحسن ما فى الدهر عمومته بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الحقل إذا ساء، ويختص بالنعمة إذا شاء، فلينظر الشامت فإن كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله تقديماً لأمله، أم لحيله، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خالق مقهوراً، ورزق مقدوراً، فهو يحيا جبراً، ويهلك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً، فإن كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً، فليعلم الموت عدلاً . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضى بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمينه، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة ؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لتعيمها صدراً لا يملؤه فرحاً، وللبؤسها قلباً لا يطيره جزعاً، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للجنة حداً، وللعارية رداً . ولقد نعى الى أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت على آمالى قعوداً، وأمانى سوداً، وبكيت والسخرى بما يملك، وضحكك وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ “ .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس

قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العوبة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرى بها فى الفناء حين يشاء .

عبد الله بن عبد الله بن عبد الله

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقبلها لا يطيره الجزع، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون.

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكك الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحرف في رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين. وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر ما فيها من العيوب. وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيت والشر المستطير.

٥ — لكن هذه السماحة النفسية ليست سمة غالبية في بديع الزمان، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كرخيبت، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشق الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء. ففي المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندري فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

الناس حُمَرٌ بِخَوْزٍ وَأَبْرَزَ عَلَيْهِمُ وَبَرَزَ
حتى اذا نلت منهم ما تشتهيهِ ففروز

وفي المقامة المكفوفية ينشد أبو القتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للال :

أنا أبو قلمون^(١) في كل لون أكون

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بمحق^(٢) إن الزمان زبون

(١) أبو قلمون ثوب روى من الأبرسم يظهر للعين في ألوان مختلفة بصناعته . (٢) الزبون : الناقة التي تدفع بثقات رجلها عند الحلب .

لا تكذب بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسبي في يد الزمان إذا سامه أنقلب

أنا أمسي من النبيل ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللئام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقده على الأغنياء، ورميه إلى أن كل غني لئيم ، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللئام لكل ذي كرم علامه

رغب الكرام إلى اللئام م وتلك أشرار القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه

من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن

أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف

المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجاه . ومن دلائل حقده وبغيه أن واليا عزل

وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده ، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي

انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير

ضروبا من الحق « لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب

لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام أنقضت :

وعهد تفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كان لم يكن وخط كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثغر فاض ماؤه فلا يرشف، ووريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغنى الان ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفاق، في الغسق... وإفنانك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفيها الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يعفل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعدوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهي اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والتفاق والضعفة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق»^(١) وفرسان المنطق» وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه،^(٢) وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه. وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع، يعنى نفسه.^(٣)

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه: فان عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال: أبا طيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة - ودسأس الأصدقاء كثيرة يعانها الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون اليه في أمره حتى أمر^(٤) بأسبغ حياؤه.

٣ - والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق.^(٥) أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان.

(١) البيهقي ج ٢ ص ٧٦ (٢) البيهقي ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت

ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البيهقي ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وأنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جناه ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبارزه التي ما يزال يؤثرني فيها بالرغائب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس ، واعتذار وأغتياب ، وأستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام في أنحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وأستعديت عليها لاستعدادائه . وشايعت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهر أناخ على مولاي بصرفه ، وأحترله دون واجب حقه » .

٤ - وتمتاز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد آتبدأ إحدى رسائله

الى صاحب بهذه الأبيات :

كُتِبَ لو أن الليل يرمى بمثله	لألقت يدا في مجريه ذكاء
تهادى بأبكار المعاني وعونها	وأعيان لفظ ما لهن كفاء
شواهد لولا أنهم أوالف	ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها نعمى وألبست الربا	نخائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلين نوءه	وما صوبه إلا حيا وحياء

(٢)

وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإنعام ، لا زالت أياديه

قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا أنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية :

« وقفت على الابيات التي أتحنفني بها سيدي ، وتكلفتم لجوابها على طلع في خاطري لطول السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

هذا البيت
يرصع به
صبا اهداه

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحياء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل

الشعر بالثر في سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله ، مادمننا في ملكة أهواجر، وتعب البكر^(١)
والأصائل» .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية؛ كقوله في وصف

رسالة للصابي :

«عرفت كيف تتنظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة ، وتترأى أشخاص البيان ،
ونمايل أعطاف الحسن والاحسان ، وقرأت لفظا جليا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا ، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتراج صيغة
المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأَوَّل منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها بالهادي ،
أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قربي موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكاها وعونها» .^(٢)

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى صاحب

في فتح عمان وإبادة الزوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى
عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء فى الانسان ألد من كفه وبنانه ، وكان
فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكجا بيعض الغلمان دابته فأختلسوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
فى الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عبثهم ومعرتهم ، فأنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتصمين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح ، وجملت له مغانم الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفىها فيل صغير بقصد الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف . منه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

الأنفس وتلد الأعين . والله تعالى يجني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين“ .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب
عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فأنت وعضد الدولة — كلاً كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظره
فيما يقرب ويبعد ، بكما أفرش مهاد الملك بعد إقصاضه ، ورفع منار الدين بعد أنخفاضه ، فأبشرا
من الله تعالى بالحسنى ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين“ .^(١)

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع الى بغداد والتقاءه معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالاذن لنا في تلقيه على الماء ، فامثلناه وتقبلناه
وتلقانا من عوائد كرمه ، ونفحات شيمه ، والمخائل الواعدة بجميل آرائه ، وعواطف أنحائه ،
ورعاية ما كنفنا يمينه ، وشايعنا عزه ، الى أن وصلنا الى حضرته البهية ، في الحديدية ، التي
استقبلت منه بسليل الملك ، وقعيد الخلافة ، وسيد الأنام ، والمستنزل بوجهه در الغمام ، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشره ، وغزتنا جهات تفضله وفضله ، وقرب علنا سنن خدمته ، وأنانا
شرف القعود بين يديه ، على كرسي أمر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دسته ، وأوسعنا من جميل
لقياه ، وكريم نجواه ، ما يسم بالعزيز أغفال النعم ، ويضمن الشرف في النفس والعقب ، ويكفل
من الفوز في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول اليه ، والقعود بين يديه ،
في مواقع الحاظه ، وموارد ألفاظه ، مراتب لم يعطها أحد فيما سلف ، ولم تجد الأيام بمثلها
لمن تقدم“ .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، والى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعفاها الزمان من الضياع .

”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم ، الى مصارع حتوفهم“ .

”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايعة ، والميامن تواكبه ، وطلائع الآمال تشرف عليه ، وثغر الاسلام يتسم اليه“ .

”وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب ، ولفظته المهارب ، وأقلقته عن مجاثمه المسكيد والكائب ، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع ، ومجاهل يعدها معالم ، يروم أنتعاشا والجد خاذله ، ويبغى آنتياشا والبغى طالبه“ .

”ولما ضاق عن هذا المخدول حلمنا باتساع غوايته ، ووعر الطريق الى أستبقائه ، استيخرنا الله تعالى في أسترجاع ما ألبسناه من النعم“ .

”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة ، واللحظة واللفظة“ .

”أدرع من ثوب عفافك ، ما يشمل كافة أطرافك“ .

”احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم ، الى مصارع حمامكم“ .

”التقوى هى العدة الوافية ، والجنة الوافية ، والتجارة الراجحة ، والسعادة السانحة ، والجلء للشبهة ، والضياء للغممة“ .

”سيعيذ الله من حرّ الهواجر برد الظلال ، ومن قلق الركاب ، نجح الإياب“ .

”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر ، وأحبسوا الحاظكم عن محظور المناظر“ .

الفهرس المفصل

الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	صفحة
٢٢ أثر الخلقة الطبيعية ...	١ - أبو الحسن الجرجاني
٢٣ ما هو الجزل وما هو الرقيق ...	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧
٢٤ إشارة الى ما نقله عن السالفين من النقد	وصف جرجان وما كان بها من نعيم ... ٨ ٧
٢٥، ٢٤ الفرق بين الشعر والدين ...	وفاء أبي الحسن لجرجان ... ٨
... .. رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ... ٩
٢٦، ٢٥ الشعرية ...	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠، ٩
٣ - ابن فارس	إبائه وعزته ... ١٠
٢٧ مولد ابن فارس ومذهبه وأشياخه ...	نماذج من شعره في التصون والعفاف ... ١١
٣٠-٢٨ ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان ...	اعتذاره من الانقباض عن الناس ... ١٢
٣٠ منزلته الشعرية والنثرية ...	تغريده على أفنان الجمال ... ١٣
٣١ نماذج من شعره ...	وصفه لنعيم الحواس ... ١٤
٣٢ كتاب الصاحب ...	حنينه الى ليالى بغداد ... ١٥
٣٢ حياته العقلية بين التحرر والجمود ...	رقعة الشوق ... ١٦
٣٣ إنكاره أن يكون للفلاسفة شعروا عراب	٢ - نقد آراء الجرجاني
٣٤، ٣٣ الجانب المشرق من حياته العقلية ...	كيف ألف كتاب الوساطة ... ١٧
٣٦، ٣٥ نماذج مما استجاده من شعر المحدثين ...	أخوة الأدب وحقوقها المفروضة ... ١٨، ١٧
آراء ابن فارس في فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ... ١٩، ١٨
٣٨، ٣٧ نقد رأى السنيور جويدي ...	التعسف في الدفاع عن أشعار الجاهلية ٢١، ٢٠
٣٩، ٣٨ ما هو فقه اللغة في رأى الثعالبي وابن فارس	أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه ٢٢، ٢١

صفحة	صفحة
كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة	رأى ابن سيده وابن جني ... ٤٠
وكيف سبقه ابن الزيات وإبراهيم	أول من كتب بالخط العربي ... ٤٠
ابن العباس ... ٥٧	رأيه في التوقيف والاصطلاح ... ٤١
نقد رأى ابن شهيد في ذلك ... ٥٨	رسم المصحف ... ٤٢
٥ - أبو بكر الباقلاني	رأيه في نشأة العلوم العربية ... ٤٢
حياته ... ٥٩	رأيه فيما جهل أصله من التعابير ... ٤٤، ٤٣
تصويره لما كان في زمانه من أزمة عقلية	نقد هذا الرأي ... ٤٥
موقفنا من درس إعجاز القرآن ... ٦٠	الألفاظ المهمة المدلول ... ٤٥
الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام	خصائص اللغة العربية ... ٤٦، ٤٥
نتيجة هذا البحث ... ٦١	تعليل ما عرف من كثرة المترادفات ... ٤٦
نقد رأى الباقلاني ... ٦٢	تأثير الأقاليم في اللغات ... ٤٧
الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب	٤ - النقد عند ابن شهيد
الربانية ... ٦٣	الفرق بين البيان وبين النحو والتصريف ... ٤٨
لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل	التنديد بالنحاة والمعلمين ... ٤٩
بالاعجاز؟ ... ٦٣	كلمة الجاحظ في معلم النحو ومعلم البيان ... ٤٩
شرح أسرار تفوق اللغة العربية ... ٦٤	نقد رأى الجاحظ وابن شهيد ... ٥٠
نقد رأى الباقلاني ورأى المسيو مرسيه	محاورة ابن شهيد لتلاميذه من العرب
بين اللغة العربية واللغات الأجنبية ... ٦٥	واليهود ... ٥١
أثر الغرور القومي ... ٦٥	الأنساب والقرابات بين الحروف ... ٥٢
ليس القرآن من جنس كلام العرب ... ٦٦	اختلاف البلاغة باختلاف أقدار المخاطبين ... ٥٢
نقد هذا الرأي ... ٦٦	الشعر الذي يوضع للمجتدين ... ٥٣
رأينا في الفوارق بين اللغات ... ٦٧	هل في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل
سر البلاغة والفصاحة يرجع الى	غرض ... ٥٤، ٥٣
ما في المعنى من قوة وروح ... ٦٨-٧٠	البلاغة ضرب من السياسة النفسية ... ٥٤
بين القديم والحديد ... ٧١	سر البلاغة يرجع الى الطبع ... ٥٥
نقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع	هل الأجسام من صور النفوس؟ ... ٥٦
الى المعاني ... ٧٢	

صفحة	
٩٢	تجنب البحترى للغريب
٩٣	السهو والغلط عند المتقدمين
٧ - أبو هلال العسكري	
٩٤	تحقيق تاريخ وفاته
٩٥٠٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	إباء أبي هلال
٩٦	شعره في التوجع لحظ الأديب
٩٦	صلته بالصاحب بن عباد
٩٨٠٩٧	دفاعه عن أدب الصاحب
٩٩٠٩٨	تحامله على المتنبي
٩٩	نثر أبي هلال
١٠٠	نماذج من نثره
١٠١	نماذج من شعره
٨ - كتاب الصناعتين	
١٠٣	الغاية من علم البلاغة
١٠٤٠١٠٣	جودة كتاب الصناعتين
١٠٥٠١٠٤	غلبة الأدب على هذا الكتاب
١٠٦	إهماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب
١٠٦	سر البلاغة عند أبي هلال
١٠٧	حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى
١٠٧	السهل الممتنع
١٠٨	الكلام الجزل
١٠٩	المدار على إصابة المعنى
١١٠٠١٠٩	أطايب من الأدب

صفحة	
٧٤٠٧٣	شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها
٧٦-٧٤	شواهد من كلام العرب وأشعارهم
٧٦	مناقشة بعض السرقات الشعرية
٧٧٠٧٦	أهمية الألفاظ والأساليب
٧٧	الباقلافي ينفي السجع من القرآن
٧٩-٧٨	خطأ هذا الرأي
٨١٠٨٠	غلط في فهم السجع
٦ - أبو القاسم الآمدي	
٨٢	حياته ومذهبه في الأدب
٨٣	نماذج من شعره
٨٤	معرفته لنفسية أدياء الأدب والبيان
٨٥	رأيه في الحاسة الفنية
٨٦	هل يمكن كسب الذوق بكثرة المران
٨٦	إيثار الشعر المطبوع على المصنوع
	يغتفر للأعراب ما لا يغتفر للشعراء
٨٧	المثقفين
	مسألة العمل والإغراب بإيثار وحشى
٨٧	المعاني والألفاظ
٨٨	دخل هذا الاتجاه في أعمار الألفاظ
٨٨	الحن لا يعرى منه أحد من الشعراء
٨٩	بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى
٨٩	اجتماع أبي تمام والبحترى لأول مرة
٩٠	التحليق والإسفاف عند هذين الشاعرين
٩٠	هل آبتدع أبو تمام مذهب البديع
٩١	غربة شعر أبي تمام وحسد معاصريه

صفحة	
١٢٠	إيثاره لمذهب المعتزلة
١٢٠	تحامل معاصريه
١٢١	مؤلفاته المختلفة
١٢٢	عنايته بجمع أشات الثقافة الأدبية
١٢٢	كتاب الموشح
١٢٣	جمعه للأواخذات الشعرية
١٢٤	تجنیه على أبي تمام
١٢٤-١٢٦	سوق المآخذ بدون تمحيص
١٢٧	وحدة البيت ووحدة القصيدة
١٢٨	دقة الوصف
١٢٨	تقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء
١٢٩	الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف ما يعيشون في فضائلهم
١٣٠	بعض الفكاهات

صفحة	
٩	أبو علي الحاتمي
١١١	حياته وأدبه
١١٢	مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض أجزائه ببعض
١١٢	القدماء والمحدثون
١١٣	براعته في نقد الشعر
١١٣	السرف في نحول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه
١١٤	اصطدامه بالمتنبي
١١٥	وصفه لخطرسة المتنبي
١١٦	الرسالة الحاتمية
١١٧-١١٩	مناقشة هذه الرسالة
١٠	أبو عبد الله المرزباني
١٢٠	حياته وإدمانه على الشراب

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٨	شخصيته الفلسفية
١٣٩	رأيه في حياة أهل الجنة
١٣٩	حياته الوجدانية
١٤٠	كتاب الصداقة والصديق
١٤١	براعته في تصوير الصداقة والحب
١٤٢ ١٤٣	تحليل العواطف والأهواء
١٤٣ ١٤٣	صورة فنية لمودة صديقين
١٤٣	رأيه في الشريعة والفلسفة
١٤٤	إخوان الصفاء

١ - أبو حيان التوحيدى

١٣٣	أسرار العبقرية
١٣٣	مولد التوحيدى ونحول نشأته
١٣٤	ثورته على الحياة والأحياء
١٣٤	اتصاله بالصاحب وخروجه عليه
١٣٥	ثورة نفسية
١٣٦	إحراقه لكتبه وغضبه على الناس
١٣٧	هجاؤه لمعاصريه
١٣٧	حديثه عن ابن مسكويه

صفحة

- ١٦٢ ... القيمة الفنية لخطبه المنبرية ...
١٦٢ ... اهتمامه بالسجع والأزدواج ...
١٦٣ ... تضمينه لآي القرآن ...
١٦٣ ... كلفه بالخيال ...
١٦٤ ... وقوفه عند الأفكار السطحية ...
١٦٥ ... سياسته لعامة الجماهير ...

٥ - أبو محمد بن حزم

- ١٦٦ ... حياته وكلفه بالكتابة عن الحب ...
١٦٧ ... كتاب طوق الحمامة ...
١٦٧ ... المحبة لا تصح إلا بعد طول الأتس ...
١٦٨ ... دوام الوصل لا يذهب بالحب ...
١٦٩ ... إغرامه بتتبع أخبار العشاق ...
١٧٠ ... وصف رسائل الحب ...
١٧١ ... دراسة الحب جزء من علم النفس ...
١٧٢ ... رأى ابن حزم في طبيعة المرأة ...
١٧٣ ... غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة ...
١٧٤ ... شاهد محزن من وفاء المرأة ...
١٧٥ ... المرأة أكثر مواساة من الرجل ...
١٧٦ ... السر في تمكن طبع المواساة من النساء ...
١٧٦ ... المرأة والرجل في الضعف سواء ...
١٧٧ ... ما الصلاح وما الفساد في الرجال والنساء ...
١٧٧ ... عفاف ابن حزم ...
١٧٨ ... الجمال أهل للدرس ...

٦ - أبو منصور الثعالبي

- ١٧٩ ... حياته وشعره ...
١٨٠ ... مواهبه النثرية ...

صفحة

٢ - أبو علي بن مسكويه

- ١٤٥ ... تحقيق اسمه وإسلامه ...
١٤٥ ... اتصاله بابن العميد ...
١٤٦ ... سخرية التوحيدى من اشتغاله بالكيمياء ...
١٤٧ ... سرتحامل التوحيدى عليه ...
١٤٨٦١٤٧ ... بديع الزمان يتوّد إليه ...
١٤٩ ... شغف ابن مسكويه بالفلسفة اليونانية ...
١٥٠ ... وصيته ودستوره في نظام السلوك ...

٣ - الأخلاق عند ابن مسكويه

- ١٥٢ ... تعريف الخلق ...
١٥٣ ... حيرته بين الفلاسفة القدماء ...
١٥٤ ... اهتمامه بتثقيف الخواص ...
١٥٤ ... ثقته بالمنطق ...
١٥٥ ... الجسم والنفس ...
١٥٦١٥٥ ... نقد رأيه في خلود النفس ...
١٥٦ ... جهوده في الفلسفة العملية ...
١٥٧ ... تحديد آرائه الأخلاقية ...
١٥٨ ... آداب الصداقة ورعاية الصديق ...

٤ - ابن نباتة الخطيب

- ١٥٩ ... أبناء نباتة في الأدب العربى ...
١٥٩ ... حياة ابن نباتة الخطيب ...
١٦٠ ... خطبة المنام ...
١٦٠ ... ولوعه بالأخبار المنامية ...
١٦١ ... تعليل هذه الأخبار ...
١٦١ ... أثر الزهد والصلاح في خطبه ...

صفحة		صفحة	
١٨٧	 يتيمة الدهر	١٨٢٠١٨١	طرائف من الحكايات
	غرام الثعالبي بإطراء من يترجم لهم من	١٨٣	كتاب ثمار القلوب
١٨٨	 الشعراء	١٨٣	ثعابين مصر في كلام الجاحظ
١٨٩	 استغلال الثعالبي لألفاظ معاصريه	١٨٤	النقش والتصوير عند الأمم القديمة
١٩٠	 إغفاله لتاريخ الوفيات	١٨٤	عرق الخال
١٩٠	 كتاب فقه اللغة	١٨٥	حشو اللوزينج
		١٨٦	ماء عناق

الباب السادس

كتاب الوسائل والعهود

ما يجب أن يتحلى به الرجل في الحياة	٢٠٨	١ - أبو الفضل بن العميد	١٩٣
الرسمية	٢٠٨	حياته ومواهبه	١٩٣
الرسائل الإخوانية	٢١٠-٢٠٨	إجلاله لأبي بكر الخياط	١٩٤
٣ - أبو حفص بن برد		طريقته في نقد الشعر	١٩٤
حياته وأدبه	٢١١	أدب النفس	١٩٥
ضياع رسائله	٢١٢	رأية ابن نباتة السعدى	١٩٦
خطابه الى القواد والكتاب	٢١٢	ما وقع بين ابن العميد وبين السعدى	١٩٧
صور النزاع بين العرب والبربر	٢١٣-٢١٥	عمل التوحيدى في هذه المحاوره	١٩٨
قيمة ابن برد الأدبية	٢١٥	أبو الفتح ابن العميد ونزواته في صباه	١٩٩
عهد المؤيد بن هشام	٢١٥	توقع أبى الفضل من سيرة آبنه	٢٠٠
كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل		مرض ابن العميد ومماته	٢٠١
وزيره عيسى بن سعيد	٢١٦		
الجانب النفعى والوجدانى عند ابن برد	٢١٧	٢ - نثر ابن العميد	
٤ - أبو المغيرة بن حزم		عظمته الثرية	٢٠٢
حياته ونحوه	٢١٨	خطاب وعيد	٢٠٣
ما وقع بينه وبين أبى محمد بن حزم	٢١٨	رسائله الوجدانية	٢٠٤-٢٠٧

صفحة	
٢٣٧	استهداء الشراب
٢٣٨	استهداء الدواء والمداد
٢٣٩	الموضوعات المكررة
٢٤٠	تهنئة بالشفاء من المرض
٢٤٠	تهنئة بالمرض !
٢٤١، ٢٤٠	تكرير العبارات والألفاظ
٢٤٢، ٢٤١	رسائله المرصعة بالشعر

٧ - الصاحب بن عباد

٢٤٣	بداية أمره
٢٤٣	اتصاله بابن العميد
٢٤٤	ولايته الوزارة
٢٤٤	عدته العلمية
٢٤٤	أخلاقه بين الكرم واللؤم
٢٤٥	رغبته في استكتاب الصابي
٢٤٦	ما آخذه التوحيدى على ابن عباد
٢٤٧	صور من غرور الصاحب
٢٤٨	مفتريات التوحيدى عليه
٢٤٩	رأى الثعالبي فى الصاحب
٢٥٠	من قصد الصاحب من الشعراء والكتاب
٢٥٢، ٢٥١	إغرابه بالكتابة فى الطب
	رسالة الخوارزمى الى تلميذ ظهر عليه
٢٥٢	الجدوى
٢٥٣	كلام الخوارزمى عن الحرب
	إغراب الصاحب بنظم قصائد خالية
٢٥٤	من بعض الحروف

صفحة	
٢١٩	سخريته من الدراسات الفقهية
٢٢٠	دقة حسه فى اختيار أطيب الحياة
٢٢٠	سوء ظنه بالناس
٢٢١	حنينه الى إخوانه
٢٢٢	غربة أدباء الأندلس
٢٢٢	حديثه عن بلائه بالناس
٢٢٣	إقذاعه فى الهجاء
٢٢٤	محاكاته لبديع الزمان
٢٢٥	معارضته لإحدى رسائل بديع الزمان
٢٢٥	غلبة التكلف على نثره

٥ - أبو الفرج البغيا

٢٢٦	حياته وخموله
٢٢٧	دورانه حول أغراضه النفسية
٢٢٨، ٢٢٧	نماذج من شعره
٢٢٩	مودته لأبى إسحاق الصابى
٢٣٠	وصف البغيا
٢٣١	وصف الصابى للثغرة البغيا
٢٣٢، ٢٣١	غلبة النعة الوصفية على البغيا

٦ - نثر البغيا

٢٣٣	اهتمامه بالإخوانيات
٢٣٤، ٢٣٣	نماذج من إخوانياته
٢٣٤	رسائله فى التهنئة بمولودة
٢٣٥	تفضيل الأثنى على الذكر
٢٣٥	”تهنئة“ من تزوجت أمه
٢٣٦	رسالة ابن العميد فى الموضوع نفسه

صفحة

٩ - قابوس بن وشمكير

٢٧٧	نشأته وأدبه
٢٧٨	شعره في محنته
٢٧٨	صنعتة في نثره
٢٧٩	ما أبدته من فنون البديع
٢٨٠	الجمع بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة
٢٨٢-٢٨١	نقد رسائل قابوس
	دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة
٢٨٥-٢٨٣	عجيبة من أحلام الانسانية
٢٨٨-٢٨٦	هل كانت لقابوس فلسفة؟
٢٨٩-٢٨٨	نشأة التكنية عند العرب

١٠ - أبو إسحاق الصابي

٢٩٠	حياته وأخلاقه النبيلة
٢٩٠	تأثره بالروح الاسلامي
٢٩١	صداقته للشريف الرضي
٢٩٣-٢٩١	قصيدة الشريف في رثائه
٢٩٣	رغبته في أن يمدحه المتنبي
٢٩٤	تأبى الصابي عن الاتصال بالصاحب
٢٩٤	توجعه من الحياة
٢٩٥	رقعة شعره وعذوبته

١١ - رسائل الصابي

٢٩٦	فناء روحه في البيئة الاسلامية
٢٩٦	استقائه من منبع على بن أبي طالب
٢٩٧	نثره تغلب عليه الصبغة الادارية
٢٩٧	ضعف الخلفاء لعهدده

صفحة

٢٥٥	تحامل الصاحب على المتنبي
٢٥٦	إعجابه بمذهب ابن العميد
٢٥٧-٢٥٦	شذرات من رسالته عن المتنبي
٢٥٨	قيمتة الأدبية

٨ - أبو بكر الخوارزمي

٢٥٩	نبوغه بين معاصريه
٢٦٠	حياته وأسفاره
٢٦٠	كلمة عن أشعار النساء
٢٦١	اتصاله بالصاحب
٢٦١	تحامله على المتنبي مجاملة للصاحب
٢٦٢	فساد الصلات بينه وبين الصاحب
٢٦٣	اصطدامه بالهمذاني بديع الزمان
٢٦٥-٢٦٤	شعوره بأعباء الحياة
٢٦٥	تشاؤمه من صحبة من يعانون إدمار الأيام
٢٦٦	فهمه لأسرار البيان
٢٦٧	سر البلاغة يرجع الى الصدق
٢٦٩-٢٦٨	الخوارزمي بين التحليق والإسفاف
٢٦٩	المرح والفكاهة
٢٧٠	الجوانب الجدية
٢٧١	شعوره بهزيمته في الحياة
٢٧٢	تصويره لبعض من عرف من الظالمين
٢٧٣	شاهد من سمعته المتكف
٢٧٥-٢٧٤	هل كانت للخوارزمي فلسفة خاصة؟
	إشارته الى ماوضع بعد الاسلام على السنة
٢٧٥	الجاهلية

صفحة	
٣١١	غرامه بمقارعة كتاب المشرق
٣١٢	خبثه في هجاء الافليلي
٣١٢	نموذج من نثره الجيد
٣١٣	وصفه لاحدى المناقرات
٣١٤	فتنته ببعض رسائله
٣١٤	وصف البعوض ووصف الحلواء
٣١٥	رسالة بديع الزمان في وصف ما عند الشواء
٣١٦	وصف جارية
٣١٧	رسالته عن النار والخطب
٣١٧	قوته في اللغة العربية
٣١٨	نثر ابن شهيد لم يبق منه إلا القليل ...

١٤ - أبو الفضل الميكالى

٣١٩	أسرة الميكالى
٣١٩	رأى الثعالبي في أبى الفضل
٣٢٠	الاخوانيات عند الميكالى
٣٢١	كتابه الى الثعالبي
٣٢١	شكوى الزمان
٣٢٢	وصف رسائل الاخوان
٣٢٣	صلته بأصدقائه وألافه
٣٢٣	فنه في نثره وشعره
٣٢٤	سلطانه على معاصريه

١٥ - بديع الزمان

٣٢٥	حياته وأسفاره
٣٢٦	رأى الثعالبي فيه
٣٢٨	بوادى الشر بينه وبين الخوارزمي ...

صفحة	
٢٩٧	نخاره بمواهبه الأدبية
٢٩٨	فقرات وصفية
٢٩٩	أثر الحكمة قليل في نثره
٣٠٠	كتابه عن الطائع الى عضد الدولة ...
٣٠٠	كتابه عن عز الدولة وقد زوجت أخته
٣٠١	تفوقه وسعة حيلته

١٢ - أبو عامر بن شهيد

٣٠٢	آل شهيد
٣٠٢	غرام أبى عامر بالفتوة والصبوة ...
٣٠٣	عيشه في القصف والتهتك
٣٠٤	كرم نفسه
	فساد رأيه في شئون نفسه وسداد رأيه
	في شئون غيره ، وما آتفق للشاعر
٣٠٤	الفرنسي لافونتين في هذه الحال ...
٣٠٥	شعوره بكرامة الموت
٣٠٥	نوحه على نفسه حين فكر في الانتحار ...
٣٠٦	ظرفه في مرضه
	نماذج من شعره الموجه حين أحس دنو
٣٠٧	الموت
٣٠٨	شعره في إخوانه ومحبيه
٣٠٨	ما أوصى أن يكتب على قبره
٣٠٩	وفاته رحمه الله

١٣ - نثر ابن شهيد

٣١٠	براعته في الإنشاء
٣١١	مظاهر الالتواء في نثره

صفحة		صفحة	
٣٥٠	مناوشات لفظية	٣٢٩	المراسلات التي تقدمت المناظرة
	١٦ - نثر بديع الزمان	٣٣٠	جواب الخوارزمي
٣٥١	تصويره لألوان النفوس	٣٣١	صورة المناظرة
٣٥١	قوة نفسه وخطابه عن خليفة الميكالى ...	٣٣٢	المباراة فى نظم الشعر
٣٥٢	خطابه الى من هنأه بمرض الخوارزمي ...	٣٣٣	قصيدة بديع الزمان
٣٥٣	خطاب فى التعزية	٣٣٤	قصيدة الخوارزمي
٣٥٤	تحليل هذا الخطاب	٣٣٤	جواب بديع الزمان
٣٥٤	سخريته من الناس	٣٣٥	مناوشة أدبية
٣٥٥	حقده على الأغنياء	٣٣٦	ملاحاة
٣٥٦	خطاب الى انسان ولّى صباه	٣٣٧	ملاحاة أشنع
٣٥٦	نقد الأخلاق	٣٣٨	هدنة تعقبها حرب
	١٧ - عبد العزيز بن يوسف	٣٣٩	تحرش وسفه
٣٥٧	حياته وأخلاقه	٣٤٠	قصيدة فى التشيع
٣٥٧	صلته بالصاحب	٣٤٢	استئناف النضال
٣٥٨	نماذج من رسائل الاخوانية	٣٤٤	نقد قصيدة للخوارزمي
٣٥٨	ترصيع النثر بالشعر	٣٤٥	وصف الربيع
٣٥٩	وصف الرسائل الاخوانية	٣٤٦	ملاحاة
٣٥٩	فتح عمان وإبادة الزوج	٣٤٧	مباراة فى الترسل
٣٦٠	الرسائل السلطانية	٣٤٧	رسالة للخوارزمي فى التجارات والأسعار
٣٦١	فقرات من نثره	٣٤٨	رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة ...
		٣٤٩	هزيمة الخوارزمي

فهرس الاعلام

حرف الألف

آدم (عليه السلام) — ج ١ ص ١٨٣ ، ٢٤٧ ؛

ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١

أبان بن أبي عياش — ج ١ ص ٨٩

ابراهيم بن زيد — ج ١ ص ١٢٧

ابراهيم بن العباس — ج ٢ ص ٥٧

ابراهيم مصطفى — ج ١ ص ٢٩

ابليس — ج ١ ص ١٢٧

ابن الأبهري — ج ١ ص ١٦٨

أبي بن كعب — ج ٢ ص ٤٢

ابن الأثير — ج ١ ص ١٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ج ٢

ص ١٥٩ ، ١٦٣

الأمدي — ج ١ ص ١١٣ ؛ ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ،

٨٨ ، ٨٦

ابن الأجدابي — ج ٢ ص ٣٩

أحمد بن ابراهيم بن علي — ج ١ ص ٢٤٣

أحمد أمين — ج ١ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦

أحمد بن أيمن — ج ١ ص ٣٠٠

أحمد بن بندار — ج ٢ ص ٣٦

أحمد بن حاتم — ج ١ ص ٢٤٦

أحمد بن الحارث — ج ١ ص ٢٤٢

أحمد بن الحسين — ج ٢ ص ٢٢١ (وانظر المتنبي) .

أحمد بن الحسين — (انظر بديع الزمان) .

أحمد بن الخطيب — ج ١ ص ٨١

أحمد زكي باشا — ج ١ ص ٢٩٧

أحمد بن صالح — ج ١ ص ٢٩٧

أحمد ضيف — ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠

أحمد بن طولون — ج ١ ص ٢٩٧

أحمد عارف الزين — ج ٢ ص ١٧

أحمد بن عبد ربه — ج ١ ص ١٢٢

أحمد عبد الخالق السادات — ج ٢ ص ٢٨٩

أحمد بن كثير الفرغاني — ج ١ ص ٣٠٢

أحمد بن يوسف المصري — ج ١ ص ١١٣ ،

١٥٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

الأحنف بن قيس — ج ١ ص ٨٩

الأحوص — ج ١ ص ٢٣٩

الأخشيدى (كافور) — ج ٢ ص ٢٦١

الأخضرى — ج ١ ص ٦٤

الأخطل — ج ١ ص ٧٦ ، ٨٧ ، ٢٥١ ج ٢

ص ١٢٣ ، ٢٣١١ ص ١٢٣ ، ٣١١

الأخفش — ج ٢ ص ٨٢

ادريس — ج ١ ص ١٢٧ — ج ٢ ص ٣١٤

البحترى (وهب بن وهب) — ج ٢ ص ٢٧٦

بختيار — ج ١ ص ٢٤٤

بدر الحرمى — ج ٢ ص ٣٠٠

بدیع الزمان الهمدانی — ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ،

٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،

١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ،

١٨٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ،

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،

٢٦٢ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢ ص ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ،

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥ ، ٣١٢ ،

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ الى نهاية

المناظرة ص ٣٥٠ ثم ثر بدیع الزمان

البدیهی (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٢٥٠

ابن برد (الأصغر) — ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢

ابن برد (الأکبر) — ج ٢ ص ٣١١ ، ٣١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٣١٣

بروکلیمان — ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ج ١ ص ١٦٧

بزرجمهر — ج ١ ص ٩٩

ابن بسام — ج ٢ ص ١٧٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤٢ ،

٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٥٩

البسطامی (أبو عمر) — ج ٢ ص ٣٤١

بطليموس — ج ٢ ص ٢٨٨

بشار بن برد — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٥٥ ،

ج ٢ ص ١٨٢

بشر بن المعتمر — ج ٢ ص ٢٤

البشرى (الشيخ سليم) — ج ١ ص ٢٩

البشرى (الشيخ عبد العزيز) — ج ١ ص ٢٩

البصرى (الحسن) — ج ١ ص ٦١ ، ٧٠

البعيث — ج ١ ص ٢٠٦ ؛ ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٧٦

البغدادى (أبو القاسم) — ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

الى بقية القصة ص ٣٥٠

البغدادى (أبو محمد عبد الرازق بن الحسن) —

ج ٢ ص ١٩٨

البكرى (توفيق) — ج ١ ص ٧٧ ، ٨٦ ، ١٧٣ ،

١٩١ ، ٢١٩

البلاذرى (أبو جعفر) — ج ٢ ص ٢٥١

بلانشو Blanchot — ج ١ ص ٤١

بودلير Beaudelaire — ج ١ ص ١٨٣

البها زهير — ج ٢ ص ٧١

بيان الطفيلي — ج ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤

بيدبا (مؤلف كيلة ودمنة) — ج ١ ص ٢٧١ ج ٢

ص ٢٣٧

بيراست الحكيم (ملك الجن) — ج ١ ص ٢٨٢

حرف التاء

تأبط شرا — ج ١ ص ٩٤

أبو تمام — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٨ ، ٥٣ ،

١٨١ ؛ ج ٢ ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٨٢ ، ٨٤ ،

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ،

١٠١ ، ١٢٤ ، ١٢٥

التونخى — ج ١ ص ١١٣ ، ١٢٢ و ٣١٥ الى بقية

الفصل

الجرجاني (عبد القاهر) — ج ١ ص ٢٢، ج ٢ ص ٧،
٤٢

الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) —
ج ١ ص ١٨، ٢٦، ١١٣، ج ٢ ص ٧، ١٠، ١٢،
١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠،
٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ١٨١، ١٩٠.

جرير — ج ١ ص ٨٧، ٢٠٧، ٢٢٠، ج ٢ ص ١٨،
١٠٩، ١٢٣، ٢٨١، ٣١١.

جرير بن عبد الله — ج ٢ ص ٣٧

الجزيري (طاهر) — ج ٢ ص ١٥٩

الجزيري (محمد ابراهيم) — ج ١ ص ٥٤، ٥٥

الجلعدى (النابعة) — ج ١ ص ٢٨

جعفر بن محمد بن ثوابة — ج ١ ص ١٧، ج ٢ ص
١٤١

جميل — ج ١ ص ١٦١، ٢٣٩، ٢٥١، ج ٢ ص ٩٠

جنان (معشوقة أبي نواس) — ج ١ ص ٢٤١

ابن جنى — ج ٢ ص ٤٠

جوت — ج ٢ ص ٦٦

ابن الجوزى — ج ١ ص ٢٠٢

جولد يزهير — ج ٢ ص ١٦٧

جويدي — ج ٢ ص ٣٧، ٣٨

حرف الحاء

أبو حاتم السجستاني — ج ١ ص ٧٧، ٢٥٠

الحاتمي (أبو علي) — ج ١ ص ١١٣، ج ٢ ص
١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩

الحارث بن شمر الغساني — ج ١ ص ٤٨

أبو حامد المروزي — ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

التوحيدى — ج ١ ص ٢٦، ٦٩، ٧٠، ١١٣،
١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١،
١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ٢٥٢، ٢٨١،
٢٨٢، ٢٨٥، ج ٢ ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥،
١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١،
١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٠،
١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،
٢٤٩، ٢٥٩

حرف الشاء

الشعالي — ج ١ ص ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٥٥،
٨٤، ١١٣، ١١٤، ١٢٩، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦،
١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ٢٨٦،
ج ٢ ص ١٧، ٢٧، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠،
١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،
١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٢٢٦،
٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٦،
٢٨٠، ٣٠١، ٣١٠، ٣١١، ٣١٩، ٣٢١،
٣٢٥، ٣٢٨

حرف الجيم

جابر بن حيان — ج ٢ ص ١٤٦

الجاحظ — ج ١ ص ٢٤، ٢٥، ٤٨، ٦٠، ٦١،
٦٢، ٦٩، ٧١، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩،
٩٢، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١١٥، ١٥٥، ١٧٤،
١٧٥، ٣٤٠، ج ٢ ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٧،
٥٨، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٨٣، ١٩٣،
١٩٤، ٢١٩، ٣٠٧، ٣١٠

جالينوس — ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

جبريل — عليه السلام ج ١ ص ٩٩، ١٠٠

جبريل القرداحي — ج ١ ص ٢٠٣

الجرجاني (أحمد بن محمد) — ج ٢ ص ١٨١

الخطيئة — ج ١ ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ ؛ ج ٢ ص ٤٢

حماد بن إسحاق — ج ١ ص ٢٤٢

حمزة الأصفهاني — ج ١ ص ٢٣٠

حممة بن رافع — ج ١ ص ٢٥٢

حميد الدين البخى — ج ١ ص ٢٠٣

حميد بن ثور — ج ٢ ص ١٠٥

الحميرى (السيد) — ج ٢ ص ٩٨ ، ١٢١

الحناط — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣

ابن حيان — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٥

الحيرى (أبوزكريا) — ج ٢ ص ٣٤٤

حرف الخاء

خالد الخزيت — ج ١ ص ٢٣٨

خالد بن عبد الله القسرى — ج ١ ص ٧٣

ابن خالويه — ج ١ ص ٢٤٩ ؛ ج ٢ ص ١١٤

الخبزأرزى — ج ١ ص ٢١٧

الخرزجى (أبودلف) — ج ١ ص ٣٥١

الخشعمى — ج ١ ص ١٢٠

أبو الخطاب (الصائى) — ج ١ ص ١٣٩

الخفاجى — ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

ابن خفاجة الأندلسى — ج ١ ص ١٧٣

ابن الخلال — ج ٢ ص ١٢٠

ابن خلدون — ج ٢ ص ٢١٥

خلف الأحمر — ج ٢ ص ٨٥ ، ٩٢ ، ١٣٠

ابن خلكان — ج ١ ص ١٣١ ، ٢٤٧ ؛ ج ٢ ص ١٧

٩٤ ، ١٢٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤

١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٠ ، ٣٢٨

حافظ إبراهيم — ج ١ ص ٢٠ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ١٧٣

الحجاج — ج ١ ص ٤٧ ، ٦٢ ؛ ج ٢ ص ١٣٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢

ابن الحجاج — ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ؛ ج ٢ ص ١١٣

ابن أبى الحديد — ج ١ ص ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ؛ ج ٢ ص ١٥٩

الحربى (أبو بكر) — ج ٢ ص ٣٤٤

الحريرى — ج ١ ص ٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢ ص ١٦٢ ، ٢٢٢

الحريزى (يهود ابن شلومو) — ج ١ ص ٢٠٣

ابن حزم (أبو المغيرة عبد الوهاب) — ج ١ ص ١١٠ ؛ ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

ابن حزم (أبو محمد) — ج ١ ص ١٢٥ ؛ ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

ابن حزم (أبو بكر) — ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ؛ ج ٢ ص ١٧٤

حسان — ج ١ ص ٢١٧

الحسن بن على — ج ١ ص ١٢٧

حسنين مخلوف — ج ١ ص ٢٩٤

أبو الحسين (السيد) — ج ٢ ص ٣٤٠

الحسين بن محمد الخشنامى — ج ٢ ص ٣٢٧

الحصرى (أبو إسحاق) — ج ١ ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ؛ ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩

٢٣٩ ، ٢٣٥ ، ١٨

ابن الخصيب — ج ١ ص ٨٢

الخليل بن أحمد — ج ١ ص ١٨٤، ٢٦٩؛ ج ٢ ص ٩٢، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٢

خنافر الحميري — ج ١ ص ٣٥، ٣٦، ٥٦

الخنساء — ج ٢ ص ١٠٧

خواجا — ج ١ ص ٢٤٩

خوارزم شاه (مأمون بن مأمون) — ج ٢ ص ١٧٩

الحوارزمي (أبو بكر) — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦

١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٦

١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٧٤، ٣٤٦؛ ج ٢

١٣٩، ١٤٠، ١٤٦، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٩

٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١

٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩٤

٣١٢، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠

٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٣

٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٢

الخياط (أبو بكر) — ج ٢ ص ١٩٤، ١٩٥

حرف الدال

ابن الداري — ج ٢ ص ٢٤٥

الدؤلي (أبو الأسود) — ج ١ ص ٥٥؛ ج ٢ ص ٤٢، ٤٣

دانوتزيو (شاعر إيطاليا) — ج ٢ ص ٢٨٥

ابن داود — ج ١ ص ٨٣، ٨٤، ٨٥؛ ج ٢ ص ١٧١

الدارقطني — ج ١ ص ٢٤٧

ابن درستويه — ج ١ ص ١٨، ٢٦٩

ابن دريد — ج ١ ص ٧٣، ١١٣، ١٩٨، ١٩٩

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩

٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٥١

٢٥٢؛ ج ٢ ص ٨٢، ١٩٠، ٣١٩

دعبل بن علي — ج ٢ ص ٩١

دكين (من حمير الجن) — ج ١ ص ٢٦٣

دوزي — ج ٢ ص ١١٧

ديك الجن — ج ١ ص ١٧٣؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٥

ديمومبين (Demombynes) — ج ١ ص ٦٩

١٨٠، ١٨٧، ٢٠٠، ج ٢ ص ١٦٧

حرف الذال

الذبياني (الناغية) — ج ١ ص ٦٥، ج ٢ ص ٧٠

١٠١، ١١٢، ١٢٦، ١٣٥

ابن ذريح (قيس) — ج ٢ ص ٧٥

أبو ذر — ج ٢ ص ٢٧١

حرف الزاء

رؤبة — ج ٢ ص ٢٢

الرازي (أبو الحسين بن فارس) — ج ٢ ص ٢٧

الرافعي (مصطفى صادق) — ج ١ ص ١٦٢

ربيعة بن حذار — ج ١ ص ٨٩

رجاء (أبو سعد) — ج ٢ ص ١٨٥

الرستمي (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٢٥٠

ابن رشد — ج ١ ص ٢٨٢

الرشيد — ج ٢ ص ٤٦، ٢٥٠

ابن رشيق — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢

الرضي (الشريف) — ج ١ ص ٢٠، ٢٦، ٦٩

١١٣، ١٢١، ٢٨٣؛ ج ٢ ص ٢٣١، ٢٥٩

٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦

الرقاشي (عبد الصمد بن الفضل) — ج ١ ص ٨١

٨٩، ٩٣

الرقاشي (الفضل بن عيسى) — ج ١ ص ٨٠، ٨٩، ٩٢

- الزوزنى (الكاتب) - ج ٢ ص ٢٨٠
 زهير بن نمير (من الجن) - ج ١ ص ٢٦٢، ٢٦١
 زهير - ج ٢ ص ١٣٠
 ابن الزيات - ج ١ ص ١٨٩، ج ٢ ص ٥٧
 الزيات (أحمد) - ج ١ ص ٦٠
 زياد بن أبى سفيان - ج ١ ص ٤٧، ٤٦٣، ٩٢
 زيدان (جورجى) - ج ١ ص ٢٣٤، ج ٢ ص ٩٤
 أبو زيد - ج ١ ص ٧٧
 ابن زيدون - ج ١ ص ١٨٠، ١٨١، ٢٩٤، ج ٢ ص ٢٠٩، ١٥٩
 زيد بن عدى - ج ٢ ص ١٨٦
 زيد بن على - ج ١ ص ١٢٧
 أبو زيد القرشى - ج ٢ ص ٢٦٠

حرف السين

- السجستانى (أبوسليمان محمد بن طاهر) - ج ٢ ص ١٤٢
 السجستانى (أبو حاتم) - ج ١ ص ٢٥٢
 سخبان - ج ١ ص ٣٧، ٥٩، ١٣٩
 ابن السراج - ج ٢ ص ٨٢
 سعد باشا - ج ١ ص ٥٤، ٥٥
 ابن سعدان (أبو عبد الله) - ج ١ ص ١٢٣
 ابن سعد (أبو الحسين) - ج ٢ ص ١٨٥
 السعدى (ابن نباتة) - ج ٢ ص ١٥٩، ١٩٦، ١٩٧
 سعيد بن حميد - ج ١ ص ١٩١، ج ٢ ص ١٠٨
 سقراط - ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

- ركن الدولة - ج ١ ص ١١٦، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٣
 ج ٢ ص ٢٤٤، ٣٦٠
 الرومانى (على بن عيسى) - ج ١ ص ٨٩، ج ٢ ص ١١٤
 ذو الرمة - ج ١ ص ١٨٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٧
 روش (Ruch) - ج ٢ ص ٢٥٤
 الروزبارى (أبو بكر بن على) - ج ١ ص ٢٨٦
 ابن الرومى - ج ١ ص ٢٠، ٦١، ٦٢، ج ٢ ص ١٠٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٧، ١٨٠، ٢١٦، ٢١٩، ٣٠٠
 رينان (Renan) - ج ١ ص ٤٤٤، ج ٢ ص ٣٣، ٣٢

حرف الزاى

- زبداء الحقب (شيطان بديع الزمان) - ج ١ ص ٢٦٧
 أبو زبيد الطائى - ج ١ ص ٢١٥
 ابن الزبعرى - ج ٢ ص ٢٥
 الزبير بن بكار - ج ١ ص ٢٤٢
 الزبيرى (بكار بن عبد الله) - ج ٢ ص ٢٧٦
 الزجاج - ج ٢ ص ٨٢
 الزجاجى (أبو الوليد) - ج ٢ ص ٣٠٨
 الزركلى (خير الدين) - ج ٢ ص ١٤٥، ٩٤
 ابن زكريا - ج ٢ ص ٢٥١
 بنت زكريا بن يحيى التميمى - ج ٢ ص ١٧٤
 الزنايبرى - ج ١ ص ٣٤١
 أبو زكريا - ج ٢ ص ١٤٦
 الزعفرانى (أبو القاسم) - ج ٢ ص ٢٥٠
 الزوزنى (أبو على) - ج ٢ ص ١٨٨

- أبو الطيب (الامام) — ج ٢ ص ٣٤٠، ٣٤٢
 أبو الطيب اللغوى — ج ٢ ص ١١٤
 أبو الطيب — ج ٢ ص ٢٢٤ (وأنظر المتنبي).

حرف العين

- عاتكة بنت قند — ج ٢ ص ١٧٤
 العارض (أبو الفضل) — ج ٢ ص ٩
 عامر بن الطفيل — ج ١ ص ٩٤
 عامر بن الظرب العدواني — ج ١ ص ٢٥٢
 العامرى (المظفر أبو عامر) — ج ٢ ص ٥٢
 ٢١٢، ١٤٦، ٥٣

- أبو عامر النجدى — ج ١ ص ١٦٧
 ابن عباد (الصاحب) — ج ١ ص ١١١، ١١٣،
 ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٣٠، ١٣١،
 ١٧٤ ج ٢ ص ١٧، ٢٨، ٣٢، ٩٤، ١٨٢،
 ١٩٤، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦،
 ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤،
 ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١،
 ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٧

- العباس بن الحسين (أبو الفضل) — ج ١ ص ١٦٧
 ابن عباس — ج ٢ ص ٤١، ٨٧، ٩٧، ٣١٣،
 ٣١٤

- أبو العباس (كاتب محمد بن إبراهيم) — ج ٢ ص ٢٧١
 أبو العباس (عبد الله بن المعتز) — ج ١ ص ٥٦
 أبو العباس بن سابور — ج ١ ص ١٣٩
 أبو العباس — ج ١ ص ١٣٧
 العباس بن الأحنف — ج ٢ ص ٧٥، ١٠٧،
 ١٢١

- العيشمى (ابن أبي الفوارس) — ج ٢ ص ٢٧٦

- الصولى (إبراهيم) — ج ١ ص ١٧، ١٨، ٢ ج
 ١٨١

- الصولى (أبو بكر) — ج ١ ص ٥٦، ٢٤٩
 الصيمرى (أبو جعفر) — ج ١ ص ١٦٧

حرف الضاد

- الضبي (أبو العباس) — ج ٢ ص ٢٥٠
 الضبي (أبو عامر) — ج ٢ ص ٣٥٣
 ضمرة بن ضمرة — ج ١ ص ٨٩

حرف الطاء

- الطائع لله — ج ٢ ص ٣٦٠
 الطائى (أبو تمام) — ج ٢ ص ٨٩، ١٢٣، ١٢٦
 ابن طباطبا — ج ٢ ص ٨٢
 ابن أبى طاهر (أحمد) — ج ١ ص ١٧
 الطبرى (أبو عبد الله) — ج ١ ص ٤٩، ٢ ج
 ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧

- الطنبى — ج ٢ ص ٣١٣
 طه حسين — ج ١ ص ١٨، ٣٣، ٣٤، ٣٧،
 ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٤،
 ١٦١، ١٧٣، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٣٤،
 ٢٤٦ ج ٢ ص ٤٦

- طرفه — ج ١ ص ٢١٧، ٢٢٠، ٢ ج ٢ ص ٢٠

- الطرماح — ج ٢ ص ١٢٥

- ابن الطواء — ج ١ ص ٣٤١

- ابن طوق (مالك) — ج ١ ص ٨١

- ابن طولون — ج ١ ص ١٧

- أبو الطيب الرازى الكيائى — ج ٢ ص ١٤٦

عبد الله بن شداد - ج ١ ص ٧٤
 عبد الله بن عبد الله - ج ٢ ص ١٨٦
 عبد الله عفيفي - ج ١ ص ١٦١
 عبد الله بن عمار البرقي - ج ٢ ص ٢٧٦
 عبد اللطيف بن يوسف البغدادي - ج ٢ ص ١٥٩
 عبد الملك بن مروان - ج ١ ص ٩١
 ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) - ج ٢ ص ٨٢
 ابن عبد الواحد (القاضي أبو جعفر) - ج ٢ ص ٨٢
 العتيبي (أبو نصر) - ج ١ ص ١٧٠
 أبو عبيدة - ج ١ ص ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٥٢، ٦٩
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي - ج ١ ص ٢٣٨
 عثمان بن عفان - ج ١ ص ١١٢، ٦٩، ٥٨
 عثمان بن مظعون - ج ٢ ص ٦٦
 عثمان بن يوسف القليوبي - ج ٢ ص ١٥٩
 العجاج - ج ١ ص ٧٤
 العجلي (محمد بن علي) - ج ٢ ص ٣٤
 عدى بن زيد - ج ٢ ص ٢٢
 العذري - ج ١ ص ٢٣٨
 عصمة بن بدر الفزاري - ج ١ ص ٢٠٦
 عضد الدولة - ج ١ ص ١١١، ١١٩، ١٢٠
 ١٢٣؛ ج ٢ ص ١٢٠، ١٤٥، ٢٤٤، ٣٥٧
 ٣٦٠، ٣٥٩

العبيد (في عرف أهل الأندلس) - ج ٢ ص ٢١٣
 أبو العتاهية - ج ٢ ص ١٠٥، ١٢٥، ١٢٧
 عتبية بن أرقم (شيطان الجاحظ) - ج ١ ص ٢٦٥
 عتبية بن عبيد - ج ٢ ص ٢٤٥
 عتبية بن مرداس - ج ١ ص ٨٧
 عدة الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 عن الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 العسكري (أبو أحمد) - ج ٢ ص ٢٨٨، ٩٥، ٩٤
 العسكري (أبو داود المتكلم) - ج ١ ص ٢٢١
 العسكري (أنظر أبو هلال)
 عبد الحميد العبادي - ج ١ ص ١٨
 عبد الحميد بن يحيى - ج ١ ص ٦٠، ٦١، ٦٣
 ١٣٣، ٧٢، ٧١، ١٣٠، ١٣٩، ٢٦٢، ج ٢ ص ١٣٣
 عبد الرحمن الشيرازي - ج ٢ ص ١٨٨
 عبد الرحمن بن عبد الله ابن أنحى الأصمعي - ج ١ ص ٢٤٦، ٢٤٩
 عبد الرحمن بن هشام - ج ٢ ص ٢١٨
 عبد الصمد بن الفضل - ج ١ ص ٧٩، ٨٨
 عبد الصمد بن المعذل - ج ١ ص ٢٠، ٢١
 عبد العزيز البشري - ج ١ ص ١٨٥
 عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل) - ج ٢ ص ٢٦٤
 عبد العزيز جاویش - ج ١ ص ٥٤، ج ٢ ص ٧١، ٢٢٥
 عبد العزيز بن يوسف - ج ١ ص ٢٥، ٢٦، ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٦١
 عبد الله بن خلف - ج ١ ص ٢٤٠

على بن هشام القائد — ج ١ ص ٢٤٠، ١٥٢
 على يوسف — ج ٢ ص ٧١
 ابن عمار — ج ٢ ص ٨٢
 عمر بن الخطاب — ج ١ ص ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٨، ٦٩، ١٤٣، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥
 ج ٢ ص ٧٥
 عمر بن أبي ربيعة — ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢
 ج ٢ ص ٩٧
 عمر بن ذر — ج ١ ص ٨٧
 عمر المطوعي — ج ٢ ص ٣٢٣
 عمر بن هبيرة — ج ١ ص ٢٠١
 عمر بن عبد العزيز — ج ١ ص ٣٣، ٦١، ٧٠
 أبو عمر الزاهد — ج ١ ص ٢٤٩
 عمر بن شبة — ج ١ ص ٢٤٢
 عمرو (معشوق ابن شهيد) — ج ٢ ص ٣٠٧
 عمرو بن سعيد — ج ١ ص ٢٥٢
 أبو عمرو (غلام ثعلب) — ج ٢ ص ١٨٥
 عمرو بن عبيد — ج ١ ص ٨٩، ٢٠١
 عمرو بن كلثوم — ج ١ ص ٢١٧
 أبو عمرو بن العلاء — ج ٢ ص ٤٢
 ابن العميد (أبو الفتح) — ج ١ ص ١١٧، ١١٨، ١١٩
 ج ٢ ص ١٩٩، ٢٦٩
 ابن العميد (أبو الفضل) — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦، ٢٧، ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٥٧، ١٦١، ١٧٠، ١٧٤، ١٩٠
 ج ٢ ص ٥٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٢، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢

العكلى (بن خزام) — ج ١ ص ٢٤٨ ج ٢ ص ٤٦
 علقمة بن لييد — ج ١ ص ٧٤
 العلوى (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٤٦
 العلوى (أبو البركات) — ج ٢ ص ٣٣٠
 العلوى (محمد) — ج ٢ ص ٢٦٨، ٢٧١
 أم عفيف المحاربة — ج ١ ص ٢٦٤
 العقاد (عباس محمود) — ج ١ ص ١٦١
 عقال بن شبة — ج ١ ص ٧٠
 عليكة بن أحمد — ج ١ ص ١٤٢، ١٤٦
 ابن عمر القاضي — ج ٢ ص ١٨٢
 على بن أبي طالب — ج ١ ص ٢٤، ٣٣، ٤٧، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٥، ١١٢، ١٢١، ٢٨٣، ٢٨٤ ج ٢ ص ٢٩، ١٦٤، ٢٧٥، ٢٩٦
 على ابن ابراهيم — ج ٢ ص ٢٧
 على بن أحمد (عليكة) — ج ١ ص ١٤٣
 على بن الجهم — ج ٢ ص ١٨
 على بن عاصم — ج ١ ص ٢٣٩
 على بن عبد العزيز — (أنظر الجرجاني أبا الحسن)
 على بن عبيدة الرياحي — ج ١ ص ١٥٢
 على بن عرس الموصلي — ج ١ ص ١٤٣
 على بن كامه — ج ١ ص ١١٦
 على ماهر باشا — ج ١ ص ١٨٥
 على بن محمد الكوفي — ج ٢ ص ١٨
 على بن المستنير بن بنت قطرب — ج ١ ص ٢٤٦
 على بن موسى — ج ١ ص ١٢٧

نفر الدولة - ج ١ ص ١٢٠، ج ٢ ص ٢٧٧، ٢٤٤

ابن الفرات (محمد بن علي) - ج ٢ ص ١٨٥

أبو فراس - ج ٢ ص ١٨٨، ٢٠٢، ٢٥٩

فرانك هاريس (Franc Haris) - ج ٢ ص ٢٦٩

الفراييدي (الخليل بن أحمد) - ج ١ ص ٢٦٦

الفرزدق - ج ١ ص ٨٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٠

ج ٢ ص ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٣١١

فرعون - ج ١ ص ٢٧٢، ٢٧٣

الفضل بن محمد (القاضي أبو بشر) - ج ٢

ص ٢٢٦

فلوجل (Flügel) - ج ١ ص ٨٤

فيثاغورس - ج ٢ ص ٢٨٨

حرف القاف

قابوس بن وشمكير - ج ١ ص ١١٣، ١٥٧ ج ٢

ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣

٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩

ابن القارح - ج ١ ص ٢٦٠

قاسم أمين - ج ٢ ص ٧١

القاسم بن علي - ج ٢ ص ٩

أبو القاسم الإفيلي - ج ٢ ص ٥٧

أبو القاسم الآمدي - ج ٢ ص ٨٢، ٨٧، ٨٩

القالي - ج ١ ص ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٥٠ ج ٢

ص ٢٧٣

ابن قتيبة - ج ١ ص ٥٩، ٦٠، ٩٩، ١٢٩

قدامة بن جعفر - ج ١ ص ١٨، ٤٤، ٥٦، ٩٧

٩٨، ١٠٦ ج ٢ ص ٨٢، ٢٧٩

ابن قريعة (أبو بكر) - ج ١ ص ١٤١

٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨

٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤٣

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٩

٢٦١، ٣٥٧

عميد الملك - ج ٢ ص ١٤٥

عيسى بن سعيد - ج ٢ ص ٢١٦

عيسى بن عمر - ج ٢ ص ٣٧

عيسى بن موسى العباس - ج ١ ص ١٢٧

عيسى بن هشام - ج ١ ص ٨٦، ١٣٣، ١٣٩

١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٩

٢٢٣، ٢٢٤

أبو العيناء - ج ١ ص ٨١، ٨٤

حرف الغين

الغزالي - ج ١ ص ٢٨٢، ٣٣٧

الغضنفر بن حمدان - ج ٢ ص ٣٦١

حرف الفاء

ابن فارس (أحمد) - ج ١ ص ٤٤، ٥٥، ٥٦

١١٣، ١٨٤، ٢٤٩ ج ٢ ص ٢٣، ٢٧

٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧

٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨

١٩٠، ٢٣١، ٢٤٤، ٣٢٦

الفارسي (أبو علي) - ج ٢ ص ١١٤

السيدة فاطمة (بنت الرسول) - ج ١ ص ١٢٦

فاطمة بنت عبد الملك - ج ١ ص ٢٤٠

أبو الفتح الإسكندري (بطل المقامات) -

ج ١ ص ٧٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦

١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٩

٢٢٤ ج ٢ ص ٢٠٠

المأموني (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٥٠
 مؤيد الدولة — ج ١ ص ١١٨، ١١٩، ج ٢ ص ٩٤،
 ٢٤٣، ٢٤٤
 المبرد (محمد بن يزيد) — ج ١ ص ٢٤٦، ج ٢ ص ٩١،
 ١٢٨، ١٨٦، ٢٥٦

مقي بن يونس — ج ١ ص ٢٨١
 المتنبي — ج ١ ص ١٨٦، ١٧٤، ٢٠٠، ٢١٥،
 ٢١٨، ج ٢ ص ١٠، ١٧، ٢٤، ٢٥٢، ٢٦٦، ٢٧١،
 ٢٩٨، ٢٩٩، ٢٩٩، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦،
 ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٨، ١٣٥، ١٨٨،
 ١٨٩، ١٩٤، ٢٣١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩،
 ٢٦١، ٢٦٢، ٢٩٣، ٣٣٤

مثنى الشاعر — ج ٢ ص ١٢٥
 مجنون ليلى — ج ١ ص ١٦١، ١٨٥، ٣٣٩
 المجوسي (أبو نصر) — ج ١ ص ٢٠، ١٢٣
 محبوب ثابت — ج ١ ص ١٨١
 المحسن (أبو علي) — ج ٢ ص ٢٤٧
 المحسن بن الحسين — ج ١ ص ٢٤٩
 المختار بن عبيد — ج ١ ص ٧١

ابن المدبر (ابراهيم) — ج ١ ص ٢٤، ١٥٥، ١٥٦،
 ٢٠٠، ٢٠١، ج ٢ ص ٢١٢
 ابن محلم الشيباني — ج ١ ص ٢٢٥

محمد (عليه السلام) — ج ١ ص ٢٤، ٣٤، ٣٥،
 ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٨،
 ٦٨، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١١١،
 ١٢٧، ١٤٧، ١٨٥، ج ٢ ص ٢٥، ٤١، ٤٤،
 ٦٧، ٧٠، ٧٢، ١٠٥، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٧

محمد بن ابراهيم (من أعداء الشيعة) — ج ١ ص ١٢٦
 محمد بن ابراهيم (كان يكتب عنده أبو العباس

ابن قرة — ج ٢ ص ٢٥١

قس بن ساعدة — ج ١ ص ٣٥

قريط بن أنيف — ج ٢ ص ٦٨

قطري بن الفجاءة — ج ١ ص ٩١

القلقشندی — ج ١ ص ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٢٨٠، ٢٠٢،

٢٨٢، ج ٢ ص ٢١٥، ٢٤١

القيس (امرؤ القيس بن حجر) — ج ١ ص ٢٨،

٦٠، ٦٥، ١٨١، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩، ج ٢

١٩، ٢٠، ٥٥، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٨٢، ١٠١،

١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ٢٠٢

حرف الكاف

الكسائي — ج ٢ ص ٣٩

ابن الكلبي — ج ١ ص ٢٥٠، ج ٢ ص ٢٧٥

كلثوم ابن عمرو العتابي — ج ١ ص ٨١

كولان (Colin) — ج ١ ص ٢٤٢

حرف اللام

لافونتين (La Fontine) — ج ٢ ص ٣٠٤

لامرتين (Lamartine) — ج ٢ ص ٦٦

ليبد — ج ٢ ص ١٩، ٢٩

لقمان بن عاد — ج ١ ص ٢٤٨

حرف الميم

ماسينيون Massignon — ج ١ ص ٦٧، ٢٣٦،

ج ٢ ص ١٣٣، ١٦٧

مالك بن الأخطل — ج ١ ص ٨٧

المأمون — ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص ١٨٦

- محمد لطنى جمعه - ج ١ ص ٢٠٥
 محمد نجيب الغرابى باشا - ج ١ ص ٢٩
 محمد بن منصور (أبوسعبد) - ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩
 محمد المولىحى - ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
 محمد المهدي - ج ١ ص ٢٥٨ ج ٢ ص ٢٦٠
 محمد بن موسى - ج ١ ص ٣٠٢
 محمد هلال بك - ج ١ ص ١٧٤
 محمد هيكل بك - ج ١ ص ٣٣
 محمد بن يوسف الثغرى - ج ٢ ص ٨٩
 المهلبى (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧ ، ٢٨٢
 ابن ميمون (العباس) - ج ٢ ص ١٣٠
 المرزبانى (أبو عبد الله) - ج ١ ص ١١٣ ، ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٦١
 ابن المرزبان (أبو نصر) - ج ٢ ص ٣٤١
 مرسيه (Marçais) - ج ١ ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧١
 ١٩٩ ج ٢ ص ٦٤ ، ١٦٧
 المرقش - ج ١ ص ٤٨
 مروان - ج ١ ص ٦٠
 مروان بن أبى حفصة - ج ٢ ص ٢٧٦
 المستعين - ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢٩
 أبو مسلم - ج ١ ص ٧٠
 مسلم بن الوليد - ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٩٠

- الذى راسله الخوارزمى) - ج ٢ ص ٢٧١
 محمد بن أحمد - (أنظر أبو المطهر الأزدى) .
 محمد بن أحمد - ج ٢ ص ٢٧
 محمد بن أرمك - ج ٢ ص ٢٤١
 محمد بن اسحاق - ج ١ ص ٨٤
 محمد بنجيت - ج ٢ ص ٣٢
 محمد بن جامع الصيدلانى - ج ٢ ص ١٧١
 محمد بن جعفر - ج ١ ص ٢٤٦
 محمد بن حامد - ج ٢ ص ١٨٩
 محمد بن حبيب - ج ١ ص ٢٤٢
 محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسى) - ج ٢ ص ٧
 محمد بن خلف - ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
 محمد السباعى - ج ١ ص ١٧٤
 محمد بن سعيد الكتائب - ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٤
 محمد بن سلام - ج ١ ص ٣٧
 محمد بن سليمان - ج ١ ص ٢٩٧
 محمد بن صالح الغورى - ج ١ ص ٢٩٨
 محمد عبده - ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ج ٢ ص ٧١ ، ١٣٣
 محمد عبد الرحمن المستكنى - ج ٢ ص ٢١٢
 محمد بن على - ج ٢ ص ١٠٥
 محمد بن عمران المرزبانى - ج ١ ص ٢٤٧
 محمد عبد المطلب - ج ٢ ص ٢٦٩
 محمد فريد - ج ١ ص ١٨١

ابن مسكويه - ج ١ ص ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠

ابن مصعب (عبد الله) - ج ٢ ص ٢٧٦

أبو المطهر الأزدي - ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٤٩

المطيع لله - ج ٢ ص ٢٩٩

مغاوية - ج ١ ص ٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ١٣٣ ، ٢٥٢ ؛ ج ٢ ص ٢٨

ابن المعتز - ج ١ ص ٢٠ ، ٢٠٦ ، ٨٢ ، ١٥٦ ، ١٧٤

المعتصم - ج ١ ص ١٢٣ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ ؛ ج ٢ ص ٨٥

المعتضد - ج ١ ص ١٧

المعتمد بن عباد - ج ٢ ص ٢٧٧

المعري (أبو العلاء) - ج ١ ص ٢٦ ، ١٩٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ؛ ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٣١١

مغز الدولة - ج ١ ص ٢٤٤

معن بن أوس - ج ١ ص ١٦٦ ؛ ج ٢ ص ٢٦

معين الدولة - ج ١ ص ١٤٢

المقري - ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٨

ابن المقفع - ج ١ ص ١٨ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٢ ؛ ج ٢ ص ٢٨٩

المكشفي - ج ٢ ص ١٨١

المنادي (يوسف بن حمويه) - ج ٢ ص ٣٥

ابن منذر - ج ٢ ص ١٣٠

المنتصر - ج ٢ ص ١٢٩

المنخل الشكري - ج ٢ ص ٢٢

المنصور (الخليفة) - ج ١ ص ٢٠١

المنصور بن أبي عامر - ج ٢ ص ١٧٤

المنفلوطي - ج ١ ص ١٨٤ ؛ ج ٢ ص ٨٩ ، ٧١

المهدي - ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٠١ ؛ ج ٢ ص ١٨٢

المهلب (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧ ؛ ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩

موسى عليه السلام - ج ٢ ص ٧٧ ، ١٨٣

موسى بن جعفر - ج ١ ص ١٢٧

الموصل (السخاق) - ج ٢ ص ٨٥

ميتس (Mez) - ج ١ ص ٣٣٨ ؛ ج ٢ ص ٢٥٤

ابن ميادة - ج ١ ص ١٨٤ ؛ ج ٢ ص ٤٤

الميكالي (أبو نصر) - ج ١ ص ١١١ ؛ ج ٢ ص ٣٥١

الميكالي (أبو الفضل) - ج ١ ص ١١٣ ، ١٧٠

١٧٨ ؛ ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠

٢٢٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

حرف النون

الناغبة - ج ١ ص ٢٢٠

ابن ناقيما - ج ١ ص ٢٠٢

ابن نباتة الخطيب - ج ١ ص ٥٨ ، ١١٣ ؛ ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥

ابن نباتة المصري - ج ٢ ص ١٥٩

ابن نباتة السعدي - ج ١ ص ٢٠٢

نجاح بن سلامة - ج ٢ ص ١٣٤

نجبة بن علي - ج ٢ ص ٢٤٤

أبو النجم - ج ١ ص ١٢٧

اليقوبى (أبو محمد) - ج ١ ص ٣٣٨

يموت بن المزرع - ج ١ ص ٢٤٦

يوسف عليه السلام - ج ١ ص ١٠٠، ٩٩

يوسف بن ابراهيم - ج ١ ص ٢٩٧

يوسف الاسرائيلى - ج ٢ ص ٥١

أبو يوسف (القاضى) - ج ١ ص ٣٣٤

اليربوعى (أبو الأقيشر) - ج ٢ ص ٨

اليزدادى - ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠

يزد جرد - ج ٢ ص ٢٧٣

يزيد بن معاوية - ج ١ ص ٢٥١

يزيد بن الوليد - ج ١ ص ٦٠

يعقوب بن ابراهيم (أبو الفرج) - ج ٢ ص ١٨٥

يعقوب بن أبى شيبة - ج ١ ص ٢٤٢



جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك، ورتبه

حضرة سليمان فهمى مبارك افندى : فلهما من المؤلف أجزل الشناء .

المراجع

الغرض من هذه المراجع هو تحديد الطبقات التي اعتمدنا عليها عند تحرير الشواهد أو نقد بعض الآراء ليستطيع القارئ الرجوع إليها حين يشاء، ولم نرد استقصاء كل ما رجعنا إليه عند تأليف هذا الكتاب وإنما اكتفينا بما لم يكن بد من الإشارة إليه في معرض البحث والتحقيق^(١).

إحياء علوم الدين — الغزالي — القاهرة — ١٢٧٨

الأخلاق عند الغزالي — زكي مبارك — ١٩٢٤

الأدب الجاهلي — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨

أدب الكتّاب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٧

أدب الكتاب — الصولي — القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب، إلى معرفة الأديب (هو معجم الأدباء).

أسواق الذهب — أحمد شوقي.

الأغاني (٢١ جزء) — الأصبهاني — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسي.

الأمالي — القالي — طبع بولاق ١٣٢٤

بغية الوعاة — السيوطي — القاهرة ١٣٢٦

بلاغة العرب في الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤

البيان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربي — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راعينا في تواريخ الطبقات ما أثبتته النashرون، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة الهجرية من السنة الميلادية.

- التحفة البهية — الاستانة — ١٣٠٢
- تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوت .
- التفضيل بين بلاغة العرب والعجم — أبو هلال العسكري (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- ثمار القلوب — الثعالبي — القاهرة .
- تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩
- حب ابن أبي ربيعة وشعره — زكي مبارك — الطبعة الثالثة .
- حكاية أبي القاسم البغدادي — أبو المطهر الأزدى — طبع هيدلبرج .
- جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى .
- الحيوان — الجاحظ — القاهرة .
- الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .
- خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١
- درة الغواص — الحريري — الطبعة الأولى .
- دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — القاهرة ١٣٣١
- ديوان أبي نواس — طبعة دمشق .
- ديوان الشريف الرضي — طبعة بيروت .
- الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- رسائل اخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩
- رسائل بديع الزمان — بيروت .
- رسائل البلغاء — كرد علي — القاهرة ١٩١٣
- رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤
- رسائل الخوارزمي — القاهرة ١٢٧٩

رسائل الصابي — القاهرة

رسالة الغفران — المعري — القاهرة ١٩٢٥

الرسالة العذراء — ابن المدبر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكي مبارك) .

زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى — ١٩٢٥

سحر البلاغة — الثعالبي — دمشق .

سر الفصاحة — الخفاجي — مخطوط بدار الكتب المصرية .

شرح نهج البلاغة — ابن أبي الحديد — القاهرة ١٣٢٩

الصاحبي — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠

طبع الأعشى — القلقشندي — طبع دار الكتب المصرية .

الصدقة والصديق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣

الصناعتين (في مجلدين) — أبو هلال العسكري — ١٣٢٠

صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠

ضحى الاسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣

طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢

طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤

طوق الحمامة — ابن حزم — ليدن ١٩١٤

العقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١

عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .

غول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة ١٣١٣

الفرائد والقلائد — الثعالبي — ١٣١٧

فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧

الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

- الفهرست - ابن النديم - طبع القاهرة .
- كتاب الكتاب - ابن درستويه - بيروت ١٩٢١
- كليلة ودمنة - ابن المقفع - القاهرة ١٣٢٧
- كمال البلاغة - اليزدادى - القاهرة ١٣٤١
- الحكايات - الثعالبي - القاهرة ١٩٠٨
- المثل السائر - ابن الأثير - بولاق ١٢٨٢
- محاضرات الراغب الأصفهاني - الطبعة الأولى .
- مصارع العشاق - جعفر بن أحمد - القاهرة ١٩٠٧
- معجم الأدباء (سبعة مجلدات) - ياقوت - طبعة مرجوليوت ١٩٢٣
- معجم البلدان (ثمانية مجلدات) - ياقوت - القاهرة ١٣٢٤
- المقاسبات - التوحيدى - القاهرة ١٩٢٩
- المكافأة - أحمد بن يوسف - القاهرة ١٩١٤
- مقامات بديع الزمان - بيروت .
- مقامات الحريري - طبع الحلبي .
- مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٣٢٢
- من غاب عنه المطرب - الثعالبي - طبع الآستانه .
- مختارات المنفلوطى .
- الموشح - المرزبانى - القاهرة ١٣٤٣
- الموشى - أبو إسحاق الوشاء - ليدن .
- الموازنة بين الطائيين - الآمدى - بيروت .
- الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك - القاهرة ١٩٢٦
- نثر النظم ، وحل العقد - الثعالبي - القاهرة ١٣١٧

- المخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .
 نشوار المحاضرة — التنونى — طبعة مرجوليوث .
 نفح الطيب — المقرئ — طبع ليدن .
 نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الآستانه ١٣٠٢
 نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
 نهاية الأرب — النويرى — طبع دار الكتب المصرية .
 نرج البلاغة — على بن أبى طالب — ١٩٢٥
 الوساطة — أبو الحسن الجرجاني — صيدا ١٣٣١
 الوسيط — أحمد السكندرى ومصطفى عنانى — ١٩٢٩
 وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
 يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

- Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.
 Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1^{er} trimestre 1927).
 Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).
 — Abulkasim. (Heidelberg 1920).
 Mubârak. — La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire.
 — Paris 1931.



كَمِّلَ طبع الجزء الثانى من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
 بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
 (أول فبراير سنة ١٩٣٤) م
 محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

ديوان زكى مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتاب والشعراء الذين نقدوا هذا الديوان

نوصى قراءنا بالاطلاع على مقدمة هذا الديوان ، بل بالامعان فيها ، فقد أُرِخَ فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة ، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهي نموذج من النثر الفني الرشيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخالنه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها في نثره الفني لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هي مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة ، وهو أمين بنظرته في تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ، وكفى بهذا الصدق المطبوع في التعبير فخراً لأى شاعر ، فان هذه هي الصفة الخالدة التي لا يقال عنها أى نقد ، والتي تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية



لعل المقدمة التي كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب في تحليل شعره : فقد تجرد كخافد من ذاتيته وعمد الى ما يعلمه عن نفسه فجعله أساساً لتلك النظرة النقدية التي وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فان الشاعر نفسه يحدثنا في مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل) وأشار في الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيد عليك يا صديق أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب فقد فهمت كل

شئ وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظالماء) وكلاهما قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرأ
أشعار هذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها ، والإجادة في اختيار ألفاظها . ومن غرر
الديوان قصيدة (غريب في باريس) .

محرر المقتطف



نقلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهل أسيوط وهي مثال حسن لسائر
القصائد والمقطوعات . وأحسن ما في الدكتور زكى مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف
مغاني الطبيعة على ضفاف النيل .

محرر المجلة الجديدة



لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكى مبارك ، ولعل
الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات ، فهو كاتب وشاعر ومن متخترجى
الأزهر والجامعة ، ومن أبناء سنتريس وباريس ، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى
الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم ، ومن الكهول الذين
لهم نشاط الشبان وثورة الشباب ... جمع في هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت
به قريحته الخصبية من قصائد في الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداه تحفة ممتعة لقراء
العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام
اللذيذة ، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره ، قديما بنسجه العربى ،
وأسلوبه الأدبى ، ونسجه المحكم الذى لم يفسده شرود عن القواعد ولا تجنّ على أصول اللغة
بدعوة الابتكار والتجديد .

محرر الهلال



ديوان زكى مبارك مجموعة من حالاته النفسية فى الفراق والبعد والشكوى والحنين وذكر
الديار والأحباب . وفى شعره الطابع العربى الصميم ، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت
فى حدائثه من الشعر القديم .

محرر الحديث



أهدانا الأستاذ زكى مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية "ديوانا" وبالفرنسية "قصائد غرامية" والتسمية الثانية أحق أولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربى الى حد بعيد ، ولا غرو فالأستاذ أديب فى الفرنسية كما هو أديب فى العربية .

محرر جريدة الهدى



الدكتور زكى مبارك عالم وأديب وقد طالع له القراء فصولا رائعة فى مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكى مبارك لا يكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضه ، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبلغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدمة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكى مبارك بشئ من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الجاف النابع من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمح فيه أثر الأسلوب المتين والصياغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفى وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر العصرى القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربى القائم على قوة الخيال وبلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع ابراهيم المصرى



كان همى حين تصفحت هذا الديوان أن أتخس من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محوم عليه على قرب أو بعد ، أو أنه لم يعمره أبدا ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لصديقى الوفى الدكتور زكى مبارك حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويحيل فيه الحياة ... قرأت فى هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية فى حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك الى إحكام فى ربط المعانى بعضها ببعض وبراعة فى حسن السياق مما لا يتيأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

محمد خالد

الاهرام



مزية شعر الدكتور زكى مبارك التى تبدو لى هى حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسبت معانيه بعد طىّ الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يستقر فى ذاكرتى لها طيف . ولكن الدكتور زكى مبارك أديب كبير وبجائه له آثاره المشهورة ودراساته المعروفة وعالم من كبراء العلماء، وله فى ذلك فضل غير منكور لا يزيده أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون .

إبراهيم عبد القادر المازنى

البلاغ



شعر زكى مبارك يطرد فيه الماء، دياجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد، شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جنبه ... ثم ان هنالك ما يبعثنى على أن أؤثر شعر الدكتور زكى مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى فى قوافيه قلقا ولا نفورا ولا عيبا ولا تراها مستكرهة على مواضعها ... وإنا لنراه يجيد الشعر حين يستلهم صوته . والذى يؤخذ من هذا أن فى دخيلة نفس زكى مبارك ميلا شديدا الى الفتك، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيرا فبكا .

بشر فارس

الاهرام



لقد أزدحت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكى مبارك وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكى مبارك فحسبه أنه لا يقول شعرا مجرد أن يملا صفحة أو صفحتين ولكنه يقول عند ما يمتلئ قلبه رغبة فى أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكى مبارك وحى هذا القلب الكبير الناضج الذى غمرته الأيام بمحادثاتها

وصهرته فى أئون تجاريها وأخرجته لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... تقرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له فى نفسك راحة وتستشعر بلذة وتذكر ما ذا عسى أن يريد قوله ، أهو جاد أم عابث ، أهو ضاحك أم باك ، أهو متحمس أم متريث ، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هذه الخواطر وتذكرها بنفسك ، وأنت تنصف هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغاريد سامية فى هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك هى أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش فى عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من قلبه قيثارة عجيبة ، وإن كان ضنينا بشعره كما تضمن الحياة بالنبوغ .

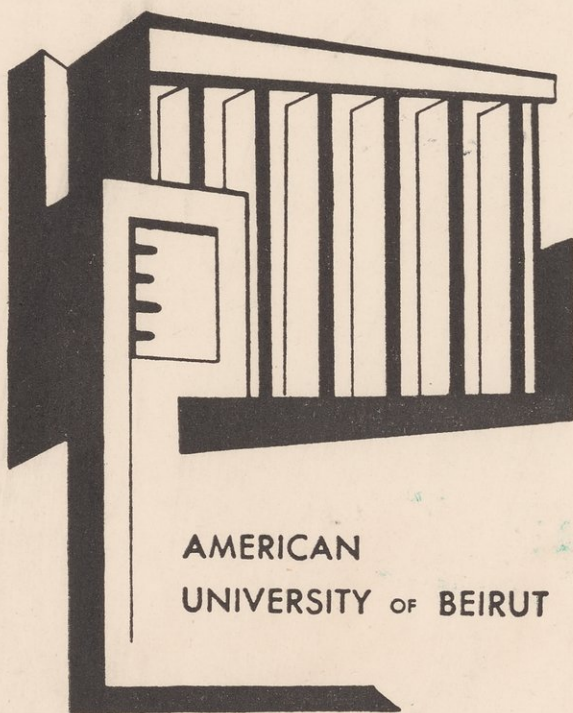
الصباح محمد على غريب

كان لا بد من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتحف الأدباء بطائفة طيبة من نثره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية ، وكان موفقا فى نظمه كما هو موفق فى نثره وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك أستطاع أن ينشئ نفسه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليها استعداد الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفى الديوان مجموعة طيبة من الشعر العصرى النفيس . وهو يلبس شعره دياجة بدوية ، ورقة حضرية . وللديوان مقدمة بديعة كتبها الشاعر بنفسه ولم يسبق إليها فيما أعلم .

المقطم محى الدين رضا

للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشباب ، لأنه يكتب بروح الشباب وينظم بعواطف الشباب ، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو فى الحياة عصامى وفى الأدب يكاد يكون عصاميا ، ولذلك كان لما يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به . وقد أصدر أخيرا ديوانا من الشعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الدياجة ومتانة الأسلوب وبين الافكار المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجذابة . فهنىء الدكتور زكى بهذا الديوان ، ونهىء القراء بهذه الهدية التى يهديها اليهم .

المصور طاهر الطناحى



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709
M94 JnA
v.2
c.1